

فولفغانغ بورشرت
سنّ الأسد
ترجمة: سمير جريس

سِنّ الأسد

سِنّ الأسد - قصص

Wolfgang Borchert

تأليف: فولفغانغ بورشرت

ترجمها عن الألمانية: سمير جريس

تصميم الغلاف: تمام عزّام

ISBN: 7 - 93 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2019



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا – دمشق – ص ب: 9838

هاتف-فاكس: 6133856 11 963+

جوال: 557195187 971+

البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+

البريد الإلكتروني:
info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

فولفغانغ بورشرت

سِنّ الأسد

قصص

ترجمها عن الألمانية:

سمير جريس

فهرس المحتويات

مقدمة: جيلٌ بلا وداع 11
سِنّ الأسد........................ 21
يســوع يرفض الاستمرار.......... 39
الخبز.............................. 43
الملوك السُّمر الثلاثة 47
انتهى... انتهى.................... 51
أربعة جنود 55
الجرذان أيضاً تنام في الليل 59
ساعة المطبخ...................... 65
الثلوج الكثيرة الكثيرة 69
الكانغرو 73
كرات «البولينغ».................. 79
في هذا الثلاثاء 83
حكايات من كتاب المطالعة 89

أودّ أن أكون منارةً

في الليل والعواصف

للأسماك

لكلّ قارب

لكنّني

سفينةٌ

مهدَّدة بالغرق!

فولفغانغ بورشرت

جيلٌ بلا وداع

«إذا حدث أن قرأت قصصاً لا تتعرّض لأيٍّ من الأحداث أو القضايا الكبيرة التي نعيشها، فلا تظنّ أنَ هذه القصص المعنيّة بصغائر الأمور كانت بمنأى عن هذه الأحداث الكبيرة أبداً؛ فالأحداث الكبيرة هي كبيرة فقط لأنها تصوغ وتلوِّن المِناخ أو المزاج العام الذي يعيش فيه الخلق من عباد الله، وهي تؤثّر بالتالي أعمق التأثير في تفاصيل الحياة اليومية (...). والسعيُ فنّياً، من أجل التعبير عن طبيعة هذه العلاقة الإنسانية، هو وظيفة الفنون جميعاً»: هذا ما يقوله القاصّ الكبير إبراهيم أصلان، في مقالته «هذه المسائل الكبيرة» التي نُشرت في كتاب «شيء من هذا القبيل». ويضرب صاحب «مالك الحزين» مثالاً قصّةَ «الخبز» للكاتب بورشرت، التي كنتُ ترجمتها ونشرتها في الثمانينيات، لأنها في رأيه نموذجٌ لقصّةٍ قصيرة «كانت تعبيراً عن حربٍ هائلة، هي الحرب العالمية الثانية، من دون أن تأتي على ذكر هذه الحرب بكلمةٍ واحدة».

هذا التناول الإنساني للموضوعات الكبرى، مثل الحرب، والموت، والحبّ، والشعور بالضَّياع، والتعبير الفنّي عنها، هما ما جذباني إلى أدب فولفغانغ بورشرت (20/ 5/ 1921 – 20/ 11/ 1947)، ودفعاني إلى أن أقوم في منتصف الثمانينيات بترجمة عددٍ من قصصه، نُشر بعضها في مجلات

مصرية وعربية، ثم جمعتها في مجموعة قصصية كانت كتابي الأول. صدر الكتاب بعنوان «شدو البلبل» ضمن سلسلة «آفاق الترجمة» عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، ونفد بمجرّد صدوره. أحدثت قصص تلك المجموعة صدىً طيّباً، بالرغم من أنها تحتوي على كلّ أخطاء البدايات، وعدّها حسين عيد في كتابه «سحر الإبداع» أهمّ مجموعة قصصية مترجمة خلال عام 1998. وبعد مرور سنوات عديدة حثّني عديد من الكتّاب والأصدقاء، وعلى رأسهم القاصّ إبراهيم أصلان والكاتبة الفلسطينية عدنية شبلي، على ترجمة عدد آخر من قصص بورشرت، فكانت الطبعة الثانية التي صدرت لدى المشروع القومي للترجمة في عام 2010 تحت عنوان «سنّ الأسد»، والتي ضمّت إلى جانب القصص المنقّحة قصصاً لم تترجَم من قبل إلى العربية. ويسرّني اليوم أن أضع بين يدي القارئ طبعةً جديدة مُرَاجَعة ومُنَقَّحة من تلك القصص.

***

«نحن جيلٌ بلا وداع»، يقول بورشرت ملخِّصاً مأساة جيله الذي سِيق إلى الحرب من دون أن يودّعه أحد؛ جيلٌ خاض الحروب وفقدَ الوطن، ثم حُمِل إلى القبر من دون أن يهتمّ بموته أحد: «نحن جيلٌ بلا رابط ولا عمق. عمقنا الهاوية. نحن جيل بلا حظّ، بلا وطن، وبلا وداع».

ولعلّ بورشرت هو أكثر الأصوات قدرةً على التعبير عن هذا الجيل وعن تلك الحرب التي خلّفت دماراً مادياً وروحياً هائلاً في ألمانيا، مثلما خلّفت خراباً أدبياً أيضاً.

عندما تولّى «هتلر» الحكم في برلين في الثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) عام 1933، تعرّض المثقّفون الألمان لامتحانٍ عسير رسبوا فيه بامتياز. لم تكن اتجاهات هتلر اليمينية المُقلقة خافيةً عن أعين الأدباء

والمفكّرين، ومنهم مثلاً الكاتب «هاينريش مان»، الشقيق الأكبر للروائي «توماس مان»؛ فبعد أسابيع من تعيين هتلر مستشاراً، دعا هاينريش مان في أكاديمية الفنون في برلين إلى تشكيل جبهة يسارية مناهضة للحكومة اليمينية القومية. وعندما علم موظّفو وزارة الثقافة بالأمر طالبوا رئيس الأكاديمية بإقالة الكاتب الكبير والمتضامنين معه، وهو ما حدث بالفعل. الشاعر المشهور «غوتفريد بن» انضمّ إلى المزايدين، وكتب بياناً يعرب فيه عن ولائه ودعمه للحكومة الجديدة، لأن الوطن يمرّ بظروفٍ صعبة ولا بدّ من مساندة النظام الحاكم، أي لا صوت يعلو فوق مصلحة الوطن حتى لو كُمِّمت أفواه المعارضين. سوء التقدير الكارثيّ هذا ندم عليه الشاعر لاحقاً طوال حياته. ولم تمرّ على هذه الحادثة بضعة أسابيع إلا وكانت اللجان الإقليمية للحزب النازي تُعِدّ «قوائم سوداء» للأدباء الممنوعين ضمّت قمم الفكر الألماني مثل ألفريد دوبلين، وبرتولد برشت، وكورت توخولسكي، وشتيفان تسفايغ، وتوماس مان، وبالطبع هاينريش مان. وبعد شهور، وفي العاشر من أيار (مايو) عام 1933، أضحت الجامعات الألمانية الكبرى مسرحاً لحريقٍ التهم ثمار الفكر الإنساني، بل حدث هذا وسط تهليل طلبة العلم والعلماء! وهكذا استطاع طاغية برلين في غضون شهورٍ عدّة، وبمساعدة قطاعٍ عريض من الألمان الذين كانوا يتوقون إلى يدٍ حديدية تنتشل البلاد من محنتها السياسية والاقتصادية، أن يقلب موازين القوى في البلاد لمصلحته، وأن يصدر القوانين الاستثنائية ويغلق الصحف التي تجرؤ على معارضة سياسته، محوِّلاً بذلك الجمهوريةَ الفتية، جمهوريةَ فايمَر، إلى ديكتاتورية مطلقة. مع حريق الكتب في عام 1933 بدأت الحرب الفعلية في ألمانيا، وبعد ستّ سنوات امتدّت نيرانها إلى العالم كله، واستمرّت حتى وصول قوات الحلفاء إلى برلين وانتحار هتلر في أيار (مايو) 1945.

طوال تلك الفترة لم يكن أمام الكُتّاب، الذين لا يريدون الارتزاق من الكتابة في خدمة النظام، إلا الهجرة والحياة في المنافي، مثل برتولد برشت، وتوماس مان، أو التقوقع في ما سُمِّي بالمهجر الداخلي، أي البقاء في ألمانيا على رغم منعهم من الكتابة والنشر، مثلما فعل الشاعر والروائي إريش كستنر، أو الانتحار يأساً، كما فعل الكاتبان فالتر بنيامين، وكورت توخولسكي.

بعد الهزيمة، كان الألمان يتوقون إلى جيلٍ جديد من الأدباء الذين لم تلوّثهم النازية، أدباء يعبّرون عن مشاعر الناس وأحلامهم، أدباء يمثّلون «ضمير الأمة» التي كانت يوماً «بلاد الشعراء والمفكّرين»، وأضحت «بلاد القضاة والجلّادين». التفّ الناس آنذاك من ناحية حول السلطة الدينية التي تمنح العفو والغفران، ومن ناحية أخرى حول الأدب الجديد الجريء المعبّر عما تختلج به الصدور؛ أدب أخذ على عاتقه تخليص اللغة الألمانية من كلّ العبارات الجوفاء الرنّانة التي ملأت كتابات أدباء النظام النازي. جزء كبير من ذلك الأدب كتبه جنودٌ سابقون خدموا في جيش هتلر، وبدؤوا تجاربهم الأدبية وسط هدير المدافع وأزيز الطائرات ودمار القصف الجوي. وفي تلك الأجواء، وتحديداً في عام 1947، تأسّست «جماعة 47» الأدبية التي كانت أحد أهم المنابر الأدبية الجديدة في المنطقة الألمانية. ضمّت الجماعة شباناً أضحوا في ما بعد نجوماً، مثل غونتر غراس، وهاينريش بُل، وإنغبورغ باخمان، وهانس ماغنوس إنتسنسبرغر. وفي العام الذي تأسّست فيه هذه الجماعة الأدبية، كان القاصّ الشابّ فولفغانغ بورشرت يلفظ أنفاسه الأخيرة.

***

«كان من الصعب للغاية كتابة نصف صفحة من النثر في أعقاب عام

1945»: هذا ما قاله هاينريش بُل، الأديب الحائز جائزة نوبل للآداب عام 1972، والذي خاض الحرب جندياً في الجيش النازي. وتبيِّن لنا هذه المقولة على خير وجه إنجاز فولفغانغ بورشرت الذي استطاع بلغته البسيطة الصادقة، الخالية من الزخارف البلاغية، أن يعبِّر عن مشاعر الملايين من الألمان بعد الحرب. كتب بورشرت قصّته الأولى «سنّ الأسد» في يوم واحد، هو الرابع والعشرون من كانون الثاني (يناير) عام 1946، في دفقة واحدة، من دون تصحيح أو شطب. في نوبة نشوة قصيرة ولدت قصّته مكتملة. قبل ذلك اليوم كان بورشرت شاعراً يسعى إلى نشر قصائده من دون أن يحقّق نجاحاً كبيراً. أمّا في «سنّ الأسد» فقد برهن على أنه قاصّ بامتياز، قاصٌّ حداثيّ سابق لعصره. ومن هنا ولدت «أسطورة بورشرت»، مثلما يقول زميله الشاعر بيتر رومكورف؛ ليس سبب تلك «الأسطورة» المرض والملاحقة السياسية والموت المبكر فحسب، بل هذا الاكتمال والنضج الفني منذ البداية.

ولد فولفغانغ بورشرت في العشرين من أيّار (مايو) 1921 بمدينة هامبورغ بألمانيا. بدأ يكتب الشعر في صباه متأثّراً بشاعره المفضَّل «راينر ماريا ريلكه». ولفت الأنظار عندما نشر إحدى قصائده في صحيفة يومية، غير أنه فاجأ أصدقاءه ومعارفه عندما اختار التمثيل مهنةً. لم يرضَ أبوه عن اختياره، فألحقه ليعمل بائعاً بإحدى المكتبات. وعمل بورشرت في المكتبة، ولكن ذلك لم يُنسِه التمثيل، إذ كان بمجرد أن ينتهي من عمله يهرع إلى المسارح ليشاهد ويستمتع ويتعلّم، بل وشرع في دراسة التمثيل بجانب عمله، وحصل على دبلوم فيه. عمل بورشرت ممثلاً بإحدى الفرق المسرحية، وبدأ يحقق حلمه. غير أن القدر لم يمهله طويلاً، فسرعان ما جاءه أمر التجنيد. وتلاحقت المآسي.

في تلك الفترة بعث بورشرت رسالة إلى أحد أصدقائه يتحدّث فيها

عن «الحقيقة» وكيف يمكن التماسها بين غبار الأكاذيب الذي يحجب الرؤية ويخنق الأنفاس. عثرت السلطات على هذه الرسالة لدى تفتيش منزله بهامبورغ، فاعتبرتها هجوماً واضحاً على النازية وإدانة لسياستها. قدّمت الرسالة للنيابة العامة مادّةً خصبة للاتهام، ولكن قبل أن يُحاكم، كان قد «شُحن» إلى الجبهة مع مئات الآلاف من الشبان ولم يكن تعدّى عامه العشرين. على الجبهة الروسية أُصيب الجندي بمرضٍ خطير حار الأطباء في تشخيصه. غير أن جهات الاتهام ظلت تلاحقه، فرُحِّل من المستشفى العسكري إلى السجن. كانت حالته الصحية بالغة السوء، إذ إن يده كانت مصابة برصاصة، كما كان يعاني آلام الحمّى الصفراء والدفتريا. وبهذه الحالة مَثُلَ أمام المحكمة العسكرية. اتهمه الادعاء العام بأنه أصاب يده عمداً حتى يتخلّص من الجندية، وهكذا طالب بإعدامه رمياً بالرصاص. ويذكر رومكورف، في كتابه عن بورشرت، أن فرحة الكاتب كانت لا توصف عندما زاره محاميه الدكتور هاغر، ليس لأنه التمس فيه محامياً قادراً على إنقاذه من غياهب السجن؛ كلّا، بل لأنه وجد أخيراً شخصاً يتحدّث معه عن شاعره المحبوب ريلكه!

انتظر بورشرت الحكم ستّة أسابيع. ستّة أسابيع قضاها وحده في زنزانة ينتظر الموت. «جهنّم من الأيام والليالي»، مثلما يقول برنارد ماير-مارفيتس. وأخيراً صدر الحكم ببراءته من تهمة إصابة يده عمداً للتخلّص من الجندية، غير أنه قُدِّم للمحاكمة مرّة أخرى بسبب هجومه على النازية في الرسائل المُصادرة، والتي قُدِّمت كدليل في المحاكمة الأولى. صدر الحكم بسجنه أربعة شهور، ثم خُفضت المدة إلى ستّة أسابيع من الحبس المشدَّد. وبعد ذلك صدر قرار ترحيله إلى الجبهة الروسية. لم يرحموا مرضه وضعفه، وزجّوا به إلى الخطوط الأمامية. غير أن المرض كان أقوى من كلّ الأوامر الغاشمة، فنُقل إلى مستشفى عسكري كان المرضى

يخرجون منه في الغالب محمولين على الأكتاف. عانى الشاعر الحمّى والتهاباً في الكبد، فقرّروا إنهاء مدّة خدمته العسكرية.

عشيّة الإفراج عنه تهكّم بورشرت أمام زملائه من وزير الدعاية الدكتور غوبلز، وقال مقلّداً إياه: «تعرفون أن الكذب ليس له سيقان. إلا أن طبيبي تمكّن من ابتكار سيقانٍ اصطناعية أمشي عليها بصورة شبه طبيعية. على الجندي الألماني أن يحارب حتى الطلقة الأخيرة، عندئذٍ سيتعلّم كيف يعدو بأقصى سرعة. وستسمحون لي، أيها الرفاق، أن أعدو أمامكم، فأنا معاق عن المشي». وبالطبع وُشي به على الفور، فنُقل من المستشفى إلى سجن برلين موآبيت. دافع عنه محاميه دفاعاً مستميتاً، بتصوير الأمر على أنه محض تقليد لما سمعه في الليلة السابقة من نكات ومزاح، فموكّله ممثّل، وهو يعشق جذب الأنظار. وبالفعل قرّرت المحكمة الإفراج عنه، غير أنه نُقل إلى معسكرٍ آخر. كانت الحرب قد أوشكت على الانتهاء، وما لبث الجندي أن وقع أسيراً لدى القوات الأمريكية التي أفرجت عنه. عندئذٍ سار مريضاً محموماً على قدميه من مدينة فرانكفورت، في قلب ألمانيا، متجهاً إلى مسقط رأسه، هامبورغ، في أقصى الشمال. كان يسير خلف دبابات الحلفاء المتجهة شمالاً، يتسوّل طعامه عند الفلاحين، وينام في الحظائر على أكوام القشّ. وفي مطلع أيار (مايو) 1945 وقف على مشارف مدينة هامبورغ وقد بلغ به الإنهاك غايته، ووصلت الحمّى إلى ذروتها. وقف أمام منزل والديه شخصاً ينتظر الموت، لكنهم استقبلوه كشخصٍ نجا من أنياب الموت!

كان عليه أن يستريح ويستجمّ طويلاً؛ لكن، كيف له ذلك وهو يريد الاشتراك في البداية الجديدة بكلّ ما يتفجّر داخله من رغبة هائلة في الحياة؟ حاول بورشرت أن يبدأ حيثما توقف قبل الحرب، فانغمس في العمل بالمسارح، وأسّس فرقة كوميدية، غير أن المرض أجبره على الرقاد

في فراشه في شتاء 1945-1946. في ذروة آلامه كان يستقبل زائريه متظاهراً بالمرح، مع أن جسده كان يئنّ تحت وطأة الألم، وظهره لا يقوى على تحمُّل أيِّ جهد، وكبده المتضخّم يعوقه عن التنفس. ومع ذلك كان دائم الابتسام والمرح، يلقي النكات لزائريه ويصغي لكلّ كلمة يسمعها عمّا يدور في العالم.

أجبرته حالته الصحية المتدهورة على التخلّي عن بعض تفاؤله ومرحه، لا سيما بعد أن نقله والداه إلى مستشفى إليزابيت في هامبورغ. أدرك الأطباء أنهم لا يستطيعون مساعدته، فنصحوا الوالدين بأخذ ابنهما لأنه «سيموت، ربما خلال عام، وربما غداً». شعر بورشرت بالسعادة عندما عاد إلى غرفته الصغيرة الحافلة بالتذكارات والذكريات. واصل كتابة المقالات النقدية، كما عمل مصحِّحاً لغوياً، ولم يفارقه الأمل في التغلّب على مرضه. كان يهتمّ بجسده على الرغم من كرهه لوَهنه. عندما كان ينهض من فراشه، كان بحاجة إلى الجدران والأبواب وساعدَي أمّه حتى يبلغ مقصده. ورغم ذلك لم يستسلم. كانت الحمّى تخفِّف في بعض الأحيان من قبضتها أو حتى ترحل عنه، فكان يكتب بسرعةٍ محمومة. وخلال ثمانية أيام من شهر كانون الثاني (يناير) 1947 خطَّ بورشرت، وهو على فراشه، مسرحيّته الوحيدة «في الخارج، أمام الباب» التي سرعان ما أضحت صرخة جيلٍ بأكمله عاد من الحرب محطَّماً ليقف «أمام الباب». نشر بورشرت قبل هذه المسرحية عدداً من قصائده، غير أن «أمام الباب» هي التي لفتت الأنظار إلى موهبته، وجلبت له الشهرة جاعلة منه «صوت الجيل». وفي الثالث عشر من شباط (فبراير) بُثَّت المسرحية كتمثيلية إذاعية، ثم جرت الاستعدادات لتقديمها على خشبة مسرح هامبورغ.

لم يكن النجاح مصدر عزاء له، إذ إن حالته الصحية كانت تتدهور، فكان يقضي الليالي بلا نوم متحمِّلاً آلاماً رهيبة. وأخيراً لاحت أمامه طاقة

أمل أخيرة عندما نصحه الأطباء بدخول مستشفى خاص في سويسرا، حيث تتوافر التدفئة والرعاية الطبية والأدوية التي لم يكن لها وجود في ألمانيا الجائعة الباردة. اجتهد عددٌ من الناشرين ومجموعة من أصدقائه ليحقِّقوا له هذا الحلم. كانت المعوقات الإدارية عديدة، كما كان صعباً على بورشرت أن يتحمّل مشقّة الطريق الطويل. وتساءل عديدون: هل للرحلة أيُّ نفع؟ ألن تضرّه أكثر مما تفيده؟ غير أن حبّه للحياة وتعلّقه بأهداب الأمل جعلاه يقرِّر الرحيل في أيلول (سبتمبر) 1947. رافقته أمّه في القطار، لكنها أُجبرت على توديع ابنها على الحدود السويسرية الألمانية. كان عليها أن تتخلّى عن يدي ابنها الواهنتين، فلم يكن مسموحاً لها باجتياز الحدود.

كانت رحلةً بلا عودة. قضى بورشرت أسابيعه الأخيرة وحيداً معزولاً في مستشفى «كلارا» في بازل، يشعر بالضغينة التي يكنّها المرضى والممرّضون تجاه هذا الجندي الآتي من ألمانيا النازية. لم يستطع بورشرت في بازل أن يكتب قصّة أو قصيدة، غير أنه أطلق من فراش المرض صيحةً أخيرة: «قولوا: لا!». آنذاك كانت مأساة هيروشيما ملء الأسماع والأبصار، فهبّ بورشرت قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة يصرخ في وجه الضمير الإنساني، داعياً الناس إلى رفض الحروب رفضاً نهائياً. كانت تلك الصرخة وصيّته. وفي صباح العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 قضى بورشرت نحبه عن ستّة وعشرين عاماً، تاركاً ديوان شعر رقيق، ومسرحية بعنوان «في الخارج، أمام الباب» كتبها على فراش المرض في ثمانية أيام، وعشرات القصص القصيرة التي انتقينا منها هذه المجموعة. ويشاء القدر أن تُعرض مسرحيته اليتيمة لأول مرة على خشبة المسرح في الليلة التالية لوفاته، وكأنها مرثيّة له ولجيله.

***

لم يكن ما كتبه بورشرت ينتمي إلى «أدب أنقاض» أو «أدب اليأس»، مثلما أُطلق على كتابات تلك الفترة في ألمانيا. قصص بورشرت تمنح الأمل، لأنه كان يشعر بالأمل؛ حتى والغرق يهدّده كان يودّ -كما يقول في إحدى قصائده- أن يكون منارةً «للأسماك، لكلّ قارب». بصيص الأمل الذي كان يراه بورشرت يلمحه القارئ في الزهور التي تضيء زنزانة السجن كالشموس الصغيرة (قصة «سنّ الأسد»)، أو في الضوء الذي يسطع على وجه طفل بين الأنقاض (قصة «الملوك السُمر الثلاثة»)، أو في الأرانب الوليدة التي تجعل الصبي الذي فقد أخاه يتشبّث بالحياة من جديد (قصة «الجرذان أيضاً تنام في الليل»).

هذا الأمل، وإن كان يخالطه شعورٌ باليأس، هو الذي دفع بالشاعر إلى الصراخ: «قولوا لا، قاوِموا الحرب، لا تتعاونوا مع الطغاة!»، صرخة أطلقها بورشرت عام 1947 – فهل تقادمت؟!

سمير جريس

سِنّ الأسد

انغلق الباب خلفي. يحدث كثيراً أن ينغلق الباب خلف أحدنا، ومن الممكن أن نتخيّل أيضاً أن يُقفَل. أبواب البيوت، مثلاً، توصد بالمفتاح، عندئذٍ يكون الشخص إما في الخارج أو في الداخل. أبواب البيوت أيضاً تتّصف بصفة نهائية، ختامية، قاسية. وها هم الآن دفعوا الباب خلفي بقوّة، نعم، دفعوا، فهذا الباب سميكٌ للغاية، لا يستطيع المرء أن يغلقه بخفّة أو بهدوء. باب قبيح يحمل الرقم 432. هذه هي السمة المميّزة لهذا الباب، أنه يحمل رقماً، وأنه مصفَّح بالحديد - هذا ما يمنحه كبرياء وفرادة، فهذا الباب لا يستجيب لشيء، ولا تؤثر فيه حتى أحرّ الصلوات.

والآن، ها هم تركوني وحدي مع هذا الكائن، كلّا، لم يتركوني وحدي فحسب، بل لقد حبسوني مع هذا الكائن الذي لا أخاف مثله: مع نفسي.

أتعرف هذا الشعور؛ ألّا تعتمد إلا على ذاتك، أن تُترَك وحيداً مع نفسك، أن تُسلَّم لذاتك؟ لا أستطيع القول إن ذلك شنيع، غير أنه إحدى أكثر المغامرات التي يمكن أن نمرَّ بها في هذا العالم إثارةً: أن تقابل نفسك. أن تقابلها كما يحدث هنا، في الزنزانة رقم 432: عارياً، لا حول لك ولا قوّة، لا تفكّر إلا في ذاتك؛ بلا صفة، من دون تشتيت، ومن دون إمكانية فعل شيء. وهذا هو الأكثر إهانةً للكرامة: أن تُسلب تماماً من إمكانية

الفعل. لا زجاجة للشرب أو للتحطيم، لا منشفة للشنق، لا سكّين للهروب أو لقطع العروق، لا قلم للكتابة، لا شيء - إلا الذات.

ما أقلَّ ذلك في غرفة خاوية بأربعة جدران عارية! هذا أقلّ مما يحوزه العنكبوت الذي يفرز دعائم، ثم يخاطر بحياته فوقها، مغامراً ما بين السقوط في الفراغ أو على الشبكة. أيُّ خيط سيلتقطنا إنْ سقطنا نحن؟

قوتنا الذاتية؟ هل سيمدُّ الربّ يده ليلتقطنا؟ الربّ - هل هو القوة التي تسمح للشجرة بالنمو وللطائر بالطيران؟ - هل الربّ هو الحياة؟ إذاً، فهو يلتقطنا أحياناً - إذا أردنا.

عندما سحبت الشمس أناملها من قضبان الشباك، وزحف الليل من الأركان، ظهر شيء من الظلام وسار في اتجاهي. اعتقدت أنه الربّ. هل فتح أحدٌ الباب؟ هل لم أعد وحدي؟ شعرت بوجود شيءٍ ما، وأنه يتنفّس وينمو. أمست الزنزانة ضيّقة للغاية، وشعرت أن على الأسوار أن تفسح الطريق أمام ذلك الذي كان موجوداً، والذي أطلقت عليه «الربّ».

أنت، يا رقم 432، أيّها الإنسان الصغير - إيّاك أن تنتشي من الليل! خوفك معك في الزنزانة، لا شيء غير ذلك! الخوف والليل. لكن الخوف مارد، والليل -إذا اختلى بنا- قد يكون مُريعاً كشبح.

يسقط القمر فوق الأسطح ملقياً ضوءه على الجدران. أيّها القرد! الجدران ضيّقة كما كانت دوماً، والزنزانة خاوية كقشرة برتقال. ليس للرب -الذي يدعونه حنوناً- وجود. لم يكن هناك، هذا الذي تحدّث، لقد كان بداخلك. ربما انبثق الإله منك أنت - إنه أنت! فأنت أيضاً إله، الجميع آلهة، حتى العناكب والأسماك. الربّ هو الحياة - هذا هو كلّ شيء. ولكن هذا كثيرٌ جداً، لهذا لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك. لا شيء سوى ذلك. ولكن هذا اللاشيء كثيراً ما يغلبنا على أمرنا.

باب الزنزانة كان مغلقاً مثل حبّة جوز، وكأنه لم ينفتح من قبل أبداً؛ مثل حبّة جوز يعلم المرء أنها لن تنفتح من تلقاء نفسها، ولا بدّ من فتحها عنوةً. هكذا كان الباب. وهكذا سقطتُ -بعد أن تُركتُ وحدي- في القاع اللانهائي. عندئذٍ صرخ العنكبوت في وجهي بنبرةٍ عسكرية: جبان! مزّقت الرياح شبكته، وهو، بدأب النمل، راح يغزل شبكةً جديدة مصطاداً إيّاي، بوزني البالغ 123 رطلاً، بحباله الرقيقة كالحرير. توجّهت إليه بالشكر، غير أنه -أبداً- لم يلحظ ذلك.

وهكذا تعوّدت تدريجياً عليّ. يثقل الإنسان برعونةٍ على الآخرين، مع أن المرء يكاد ألّا يتحمّل ذاته. ولكن شيئاً فشيئاً وجدتني مسلّياً ومحتملاً؛ وهكذا رحت أكتشف نهاراً وليلاً أشياء عجيبة في نفسي.

غير أني فقدتُ خلال تلك الفترة الطويلة العلاقة مع كلّ شيء؛ مع الحياة، ومع العالم. تساقطت الأيام كقطرات وانفصلت عني في سرعةٍ وانتظام. شعرت كيف أصبحت ببطء خاوياً من العالم الحقيقي وممتلئاً بي أنا. وشعرت كيف رحت أبتعد عن هذا العالم الذي دخلته لتوّي.

الجدران باردة وميّتة حتى أني أصبحت مريضاً من اليأس والقنوط. بالتأكيد يصرخ المرء شاكياً بؤسه طوال أيام، وعندما لا يجيب شيء يشعر المرء سريعاً بالإنهاك. طوال ساعات يضرب المرء بيديه على الجدران والأبواب، وعندما لا ينفتح شيء، فإن الأيدي سريعاً ما تدمى، وهذا الألم الصغير يغدو المتعة الوحيدة في هذا القفر.

لا شيء نهائياً في هذا العالم. فالباب المتوَهَّم انفتح، وأبواب أخرى كثيرة؛ وكلّ بابٍ كان يدفع برجلٍ خجول لم يحلق وجهه جيداً إلى الخارج، ليقف في طابورٍ طويل في فناء، يتوسّطه عشبٌ أخضر وتحيط به الجدران الرمادية.

ثم انفجر نباحٌ من حولنا وعلى رأسنا، نباحٌ مبحوح صادر عن كلاب زرقاء تربط بطونَها أحزمة جلدية. جعلتنا الكلاب في حركةٍ دائمة، كما كانت هي في حركة دائمة، وراحت تنبح في وجوهنا مثيرةً خوفاً عظيماً. ولكن عندما يتشبّع المرء بالخوف، وعندما يهدأ، يعرف المرء أن النباح صادرٌ عن أناس يرتدون زيّاً أزرق باهتاً.

درنا في دائرة. عندما تتغلّب العين على لقائها الأول بالسماء، هذا اللقاء الذي يهزّ المرء من الأعماق، وعندما تعتاد العين الشمس، عندئذٍ يستطيع الواحد منا أن يلمح، وهو يضيِّق عينيه، أن عديدين يسيرون على غير هدىً وهم يتنفسون بعمق مثلما يفعل المرء نفسه – سبعين، ثمانين رجلاً ربّما.

ودائماً في دائرة – على إيقاع القباقيب الخشبية، خائفين، ضعفاء، ومع ذلك مبتهجين أكثر من المعتاد لمدة نصف ساعة. لولا الزيّ الأزرق وهذا النباح في الوجه، لكان باستطاعة المرء أن يمشي متسكّعاً هكذا إلى أبد الآبدين – بلا ماضٍ ولا مستقبل، ليس إلا الحاضر المستمتع: التنفّس، والرؤية، والمشي!

وهذا ما كان في البداية. إنه عيدٌ تقريباً، سعادة صغيرة. ولكن بمرور الوقت –عندما يستمتع الإنسان شهوراً من دون أن يخوض معركة– يبدأ الذهن في الشرود. لا تعود تكفيه السعادة الصغيرة، يشعر بالسأم، والقطرات العكرة في هذا العالم –الذي يتحتّم علينا أن نعيش فيه– تتجمّع وتسقط في كأسنا. ثم يأتي اليوم الذي يغدو فيه الدوران في دائرة عذاباً، عندئذٍ يشعر الإنسان أن السماء العالية تتهكّم عليه، وعندما لا يعود الإنسان يشعر بالواقف أمامه والواقف خلفه كأخٍ وشريك في المعاناة، بل كجثّة متحرّكة ليس لوجودها هدفٌ سوى إثارة اشمئزازنا، وعندما يشعر المرء بأنه محشور بين الآخرين، مثل قطعة من الخشب لا وجه لها، قطعة تجاور

غيرها في سورٍ لا ينتهي، آه، عندئذٍ يثيرون لدينا الغثيان أكثر من أيّ شيء آخر. هذا يحدث عندما يدور المرء طوال شهور في دائرة بين الأسوار الرمادية، وبين مرتدي الزيّ الأزرق الشاحب، الذين يستنفدون قوى المرء بنباحهم.

الرجل الذي يسير أمامي مات منذ فترة طويلة. أو خرج من متحف الشمع بعد أن تلبّسته روحٌ شرّيرة غريبة تدفعه إلى أن يتصرّف كأنه إنسان طبيعي – مع أنه مات منذ فترة طويلة. نعم! فصلعته -التي يحيط بها الشعر الأشعث الرمادي القذر كإكليل- ليس لها البريق الدهني الذي تتسم به صلعة الرجل الحيّ حين تنعكس الشمس والمطر عليها انعكاساً طفيفاً – لا، لا بريق لهذه الصلعة، إنها منطفئة وذابلة كقطعة قماش. لو لم يكن يتحركْ هذا السائر أمامي -الذي لا أستطيع وصفه بالإنسان، تقليد الإنسان هذا- لكان من الممكن اعتبار الصلعة باروكةً ميتة. ليست باروكة عالِم أو سكّيرٍ عظيم – كلّا، إنها على أقصى تقدير باروكة موظّفٍ بيروقراطيّ أو مهرّج في سيرك. لكنها متماسكة، هذه الباروكة – وربما لا تريد أن تسقط لأنها شرّيرة فحسب، لأنها تدرك أنني، أنا السائر خلفها، أكرهها. نعم، إني أكرهها. لماذا تسير باروكة -أريد أن أطلق على الإنسان كلّه الآن كلمة «باروكة»، هذا أسهل- لماذا تسير أمامي وتظلّ على قيد الحياة، بينما صغار العصافير التي لم تتعلّم الطيران بعد تسقط من سقف البيوت إلى هاوية الموت؟ إني أكره الباروكة لأنها جبانة – وأيّ جبن! إنها تشعر بكراهيّتي لها، بينما تواصل تسكّعها الأبله أمامي، تدور دوماً في دائرة، في دائرة صغيرة للغاية، بين الأسوار الرمادية التي لا قلب لها؛ لو كان لها قلب لرحلت سرّاً ذات ليلة لتحيط بالقصر الذي يسكن فيه وزراؤنا.

منذ مدّة طويلة وأنا أفكّر في السؤال التالي: لماذا حبسوا الباروكة في

السجن؟ أيُّ فعلة ارتكبتها هذه الباروكة التي تجبن عن أن تلتفت خلفها لتنظر ناحيتي، أنا الذي أعذّبها طيلة الوقت؟ نعم، إني أعذّبها: ألاحقها على الدوام، عمداً بالطبع، وأصدر من فمي صوتاً كريهاً، وكأنني أبصق ربع رطلٍ من البلغم على ظهرها. في كل مرة تصيبها رعدة. رغم ذلك لا تجرؤ أن تستدير استدارة كاملة لترى معذّبها، لا، لا تجرؤ، إن جبنها يمنعها من أن تفعل ذلك. إنها تستدير في اتجاهي قليلاً فحسب، برقبة متيبّسة، لكنها لا تجرؤ على أن تستدير نصف استدارة إلى أن تلتقي عيوننا.

ترى، ماذا ارتكبتْ؟ هل اختلستْ أم سرقتْ؟ أم أنها خدشتْ الحياء العامّ في نوبة هياجٍ جنسيّ؟ نعم، ربما. نعم، ذات يوم انتشت بعاشقٍ أحدب، فهجرت جبنها مندفعةً إلى حالة شبقٍ سخيف - والآن، ها هي ذي تتسكّع أمامي، مستمتعةً بصمت، ومرتعبة في الوقت نفسه، لأنها تجرّأت وفعلت شيئاً.

لكني أعتقد أنها ترتعش الآن سرّاً لأنها تعرف أني أمشي خلفها، أنا، قاتلها! آه، من السهل عليّ أن أقتلها، ومن الممكن أن يحدث ذلك من دون لفت انتباه أيّ شخص. ما عليّ إلا أن أضع ساقي في طريقها، عندئذٍ ستتعثّر بساقيها النحيلتين للغاية، ولربما شُجَّ رأسها - ثم يخرج الهواء منه بهدوءٍ مميت وكأنه يخرج من إطار درّاجة: بففف... سينفجر الرأس من المنتصف مثل الشمع الأبيض المائل للصفرة، أما قطرات الحبر الأحمر القليلة المتساقطة من الرأس، فستبدو زائفةً وسخيفة، وكأنها قطرات من عصير توتٍ برّيٍّ أحمر فوق القميص الحريري الأزرق الذي يرتديه ممثّلٌ كوميديّ مطعون بخنجر.

إلى هذا الحدّ كنت أكره الباروكة، كنت أكره الرجل الذي لم أرَ يوماً وجهه البغيض، والذي لم أسمع صوته أبداً؛ الرجل الذي لم أكن أعرفه إلا

من رائحته العطنة كرائحة مبيد العُثّ. صوته -هذا الرجل الباروكة- متعبٌ وخافت بالتأكيد، لا يُظهر أيّ حماسة، صوت ضعيف مثل أصابعه النحيلة الشاحبة. عيناه جاحظتان بالتأكيد، مثل عين العجل، وشفته غليظة ومتهدّلة تودّ أن تأكل طيلة الوقت قطع الشوكولاتة الفاخرة. الباروكة قناع رجلٍ على قيد الحياة، يخلو من العَظَمَة، لا يتحلّى إلا بشجاعة تاجر الورق الذي كثيراً ما تظلّ يداه -الشبيهتان بيدي القابلة- عاطلتين عن العمل طوال النهار، إلا عندما تتناولان سبعة عشر «بفنكاً» مقابل كرّاسة، ثم تديران العملات بين الأصابع.

كفى، ولا كلمة أخرى عن الباروكة! إني أكرهها كراهية شديدة تدفع بي بسهولة إلى نوبة من نوبات الغضب التي قد تفضحني. كفى، خلاص! لا أريد أن أتحدّث عنها بعد ذلك أبداً، أبداً!

لكن عندما يظل شخصٌ -تودّ أنت ألّا تذكره- يسير بركبةٍ مكسورة دائماً أمامك، على وقع أنغام ميلودرامية، فلن تستطيع أن تتجاهله. مثل تهيُّجٍ جلديّ يدفعك إلى أن تحكّ مكاناً ما في الظهر لا تصل إليه يداك، هكذا تجد نفسك بين الحين والآخر مدفوعاً إلى التفكير فيه، والشعور به، وكرهه.

أعتقد أن عليّ أن أقتله. ولكني أخشى أن يعمل الميت فيّ مقلباً مريعاً، ويتذكّر فجأة وهو يضحك ضحكة وضيعة أنه كان في ما مضى مهرِّجاً في سيرك، ثم تدبّ فيه الحياة وينهض من وسط دمائه. ربما مضطرباً بعض الشيء، وكأنه لم يستطع أن يمنع تدفّق الدم مثلما يمسك الآخرون أنفسهم ويحبسون البول. ماشياً على رأسه سيتنقّل في أنحاء حوش السجن، وربما يعتبر الحراسَ حميراً غبيّة يستطيع إثارتها والوصول بها إلى حافة الجنون، وعندئذٍ -بعد أن يكون قد أثار الخوف- يقفز إلى أعلى فوق السور، وهناك سيُبرز لسانه لنا ويحرِّكه كخرقة تنظيف، ثم يختفي إلى الأبد.

لا يمكن استنفاد احتمالات ما قد يحدث لو فكّر كلٌّ منّا فجأة في ماهيّته وجوهره.

لا تعتقد أن كراهيتي للسائر أمامي، كراهيتي للباروكة كراهية جوفاء ولا سبب لها - آخ، قد يواجه المرء مواقف يشعر فيها أن الكراهية تملأ نفسه وتفيض حتى تجرف المرء خارج حدود نفسه، حتى أن الإنسان لا يعود يستطيع أن يجد ذاته إلا بصعوبة - هكذا يخرّب الكره النفس.

أعرف أن من الصعب أن تصغي إليّ وأن تشاركني مشاركة وجدانية. ولكن عليك أيضاً ألا تصغي إليّ وكأنك تستمع إلى شخص يقرأ لك من أعمال غوتفريد كِلر أو تشارلز ديكنز. عليك أن تسير معي، تدور معي في الدائرة الصغيرة بين الأسوار القاسية. ليس عليك أن تسير جانبي بالفكر، كلا، بالجسد عليك أن تسير خلفي. عندئذٍ سترى بأيّ سرعة ستكرهني. إذا سرت معنا مترنّحاً (أستخدم الآن ضمير الجمع لأننا نتشارك معاً في المصير نفسه) وسط دائرتنا المشلولة، فستكون فارغاً من الحب لدرجة أن الكراهية ستصعد في داخلك مثل فقاعات الشمبانيا. وستتركها تصعد داخلك لكي تهرب من هذا الفراغ اللعين ولا تعود تشعر به. وإيّاك أن تعتقد أنك، بمعدتك الخاوية وقلبك الخالي، ستكون مهيّأً لأن تأتي بأفعالٍ مجيدة تمليها عليك محبّة القريب!

ستترنّح إذاً خلفي كإنسان خاوٍ من كلّ ما هو خير، ولشهورٍ ستبقى مرتبطاً بي وحدي، لن ترى سوى ظهري النحيل، وقفاي الأنثوي وسروالي الخالي الذي يجب -حسب علم التشريح- أن يحتوي على شيء ما. ولكنك ستجد نفسك مرغماً على النظر إلى ساقيّ أغلب الوقت. كلّ السائرين في الخلف يحدِّقون في ساقَيْ مَن يسير أمامهم، مُجبرين على المشي على وقع خطواتهم وبالإيقاع نفسه، حتى لو كان غريباً بالنسبة لهم

وغير مريح. نعم، وعندئذٍ، عندما تلاحظ أنه ليست لي مشية تخصّني، سيصيبك الكره مثل امرأة غيور. هناك بالفعل أشخاص ليست لهم مشية: إن لهم أساليب عديدة، غير أنهم يعجزون عن المواءمة بينها لإخراج نغمة واحدة. أنا واحد من هؤلاء. ستكرهني بسبب ذلك. ستكرهني بسبب وبلا سبب في آنٍ واحد، مثلما يتحتّم عليّ أن أكره الباروكة، لأني أسير خلفها. وعندما تتأقلم على خطوتي المرحة، غير الواثقة بعض الشيء، فستكتشف، عندما تتوقف قليلاً، أنني فجأة أصبحت أسير بقوة ونشاط. ولكنك ما تكاد تلاحظ طريقة سيري الجديدة حتى أبدأ بعد عدّة خطوات في التسكّع بلا رغبة ولا همّة. كلا، لن تشعر بالسرور ولا بالصداقة تجاهي. لا بدّ أن تكرهني. كلّ السائرين في الخلف يكرهون السائرين أمامهم.

ربما سيكون كلّ شيء مختلفاً لو التفت السائرون في الأمام إلى السائرين في الخلف حتى يتفاهموا. ولكن هذا هو الوضع: السائر في الخلف لا يرى سوى السائر أمامه، فيكرهه. غير أنه يتجاهل السائر خلفه - إذ إنه عندئذٍ يشعر بنفسه سائراً في الأمام. هذا هو الحال في دائرتنا خلف الأسوار الرمادية - وهذا هو الحال، بالتأكيد، في أماكن أخرى أيضاً، ربما في كلّ مكان.

ربما كان عليّ أن أقتل الباروكة. ذات مرّة أثارت غضبي حتى أن دمي شرع في الغليان. حدث ذلك عندما قمت باكتشافي. ليس شيئاً عظيماً. إنه اكتشاف صغير جداً.

هل سبق لي القول إننا في كلّ يوم اثنين ندور لمدة نصف ساعة حول قطعة صغيرة من النجيل الأخضر القذر؟ وسط حوش هذا السيرك الغريب كانت هناك مجموعة شاحبة من عيدان الحشائش، شاحبة، وبلا وجه. مثلنا في داخل هذا السور الخشبي الذي لا يُحتمل. خلال بحثي عن شيء حيّ،

ملوّن، مرّت عيني بلا أملٍ كبير، بما يشبه المصادفة في الحقيقة، على تلك العيدان الصغيرة التي انكمشت رغماً عنها وأومأت لي، عندما شعرت أني أتفرّج عليها - عندئذٍ اكتشفت بينها نقطة صفراء لا تلفت الأنظار، وكأنها فتاة يابانية مصغرة من فتيات «الغيشا» ترقد على مرجٍ فسيح. أصابتني رجفة بسبب اكتشافي، وأعتقد أن الجميع لاحظ أن عينيّ تسمّرتا وهما تحدّقان في هذا الشيء الأصفر، وهكذا نظرت بسرعة وباهتمام بالغ إلى القبقاب الذي يلبسه السائر أمامي. ولكن، مثلما تحملق في شخصٍ تتحدّث معه وتحدّق في البقعة الموجودة على أنفه، فتصيبه بقلقٍ بالغ، هكذا كانت عيناي تطاردان النقطة الصفراء. وعندما مررتُ قريباً منها، حاولت بقدر الإمكان ألا أبدو مهتماً بها. عندئذٍ أدركت أنها زهرة، زهرة صفراء. كانت زهرة سنّ الأسد - زهرة صفراء صغيرة. كانت على بعد نصف متر تقريباً من الطريق الذي كنّا نسير عليه، من الدائرة التي كنّا في كلّ صباح نستنشق فيها الهواء. شعرت بالخوف الشديد، وتخيّلت أن أحد لابسي الزّي الأزرق سيتتبّع مندهشاً نظرتي. ورغم أن كلاب الحراسة كانت مدرّبة تدريباً جيداً لكشف أيّ حركة فردية تحدث داخل السور الخشبي، وذلك بالنباح الغاضب، فلم يشاركني أحدٌ اكتشافي. زهرة سِنّ الأسد الصغيرة بقيت ملكاً لي وحدي.

لأيّامٍ قليلة فحسب كنت أشعر بالفرحة الحقيقية. إنها ملكي وحدي. كان عليّ، في كلّ مرّة نُنهي فيها الجولة الدائرية، أن أنتزع نفسي منها انتزاعاً. وددتُ لو استغنيت عن حصّة الخبز اليومية (أتعرفون ما معنى هذا؟!) في مقابل أن أمتلكها. وتضخّم في داخلي شوقٌ يدفعني لأن أمتلك في زنزانتي شيئاً حيّاً، وهكذا سرعان ما أضحت هذه الزهرة، زهرة سنّ الأسد الصغيرة الخجول، مثلَ إنسانٍ بالنسبة لي، مثل عشيقة أحبُّها في السرّ: لم أعد أستطيع العيش من غيرها - هناك، في الأعلى، بين الحيطان الميّتة!

ثم حدث ذلك الشيء مع الباروكة. لقد بدأتُ الأمر بمكرٍ بالغ. كلّ مرّة أمرُّ فيها بزهرتي، كنت أحيد -محاولاً قدر الإمكان ألا أثير الانتباه- عن الطريق بخطوة واحدة في اتجاه العشب. كنت أتكهّن بأن غريزة القطيع مستيقظة داخل كلٍّ منا. ولم أكن مخطئاً. السائر خلفي، والسائر خلفه، والسائر خلفه -وهكذا دواليك- كلّهم مشوا ورائي في طاعة عمياء. وهكذا نجحت طيلة أربعة أيام في أن أجعل طريقنا قريباً للغاية من زهرتي البرّيّة، حتى أنه كان بإمكاني أن ألمسها باليد لو انحنيت تجاهها. نعم، ستتسبّب فِعلتي في موت نحو عشرين عوداً من عيدان العشب الشاحبة موتاً مغبرّاً تحت القباقيب، ولكن من يفكّر في بضعة عيدانٍ مدعوسة من العشب، عندما يريد أن يقطف زهرة؟!

اقتربت من تحقيق أمنيتي. على سبيل التجربة، تركت جوربي الأيسر ينزلق عدّة مرّات، وانحنيت مغتاظاً وعلى نحو لا يثير الريبة، ثم شددت الجورب لأعلى. لم يلفت ذلك نظر أيّ شخص. إذاً، إلى الغد!

لا تضحكوا عليّ عندما أقول إنني دخلت الحوش في اليوم التالي بقلبٍ خافق وبيدَين نَدِيّتَين ومرتعشتين. لقد بدا الأمل بعيد المنال، أنْ أجد فجأةً عشيقةً في الزنزانة، بعد شهورٍ من الوحدة وافتقاد مشاعر الحبّ.

كنّا قد أوشكنا على الانتهاء من حصّتنا اليومية من المشي الدائري على وقع القباقيب الرتيب - كان عليّ أن أفعلها في الدورة قبل الأخيرة. في تلك اللحظة شرعت الباروكة في تنفيذ ما انتوته، على نحوٍ هو الأكثر خبثاً ودناءة.

كنا -كما قلت- قد بدأنا دورتنا قبل الأخيرة، وكان الزُّرق يصلصلون بسلسلة مفاتيحهم الضخمة مدَّعين الأهمّيّة. رحت أقترب من مكان الجريمة، ومن هناك راحت زهرتي ترسل إليّ نظراتها خائفةً. ربما لم

أكن منفعلاً في حياتي مثلما كنت في تلك الثواني. لا يتبقّى سوى عشرين خطوة. خمس عشرة خطوة، عشر خطوات، خمس...

عندئذٍ حدث ما لا يُعقل! فجأة ألقت الباروكة -وكأنها ستشرع في الرقص- ذراعيها النحيفتين في الهواء، ثم رفعت الساق اليمنى برشاقة حتى لامست السُّرّة، ثم دارت على الساق اليسرى إلى الخلف. لن أفهم أبداً من أين أتت بتلك الشجاعة - رمقتني منتصرة، وكأنها تعرف كلّ شيء، ثم قلبت، إلى الأعلى، عينيها الواسعتين مثل عيني عجل حتى بدأ بياضهما يلمع، ثم انهارت وسقطت مثل دمية. آخ! الآن أصبح الأمر مؤكَّداً: لا بدّ أنه كان يعمل مهرّجاً في سيرك، إذ إن الجميع انفجروا في الضحك!

غير أن الأزياء الزرقاء سرعان ما نبحت، وانمحى الضحك وكأنه لم يكن. ثم سار أحدهم تجاه الراقد، وقال بنبرةٍ بديهيّة تماماً، مثلما يقول المرء: إنها تمطر - هكذا قال: لقد مات!

لا بدّ أن أعترف بشيء - بدافعٍ من الأمانة تجاه نفسي. في اللحظة التي تلاقت نظراتي مع الرجل الذي أسمّيه الباروكة، عندما شعرت بأنه سقط صريعاً، ليس صريعي، لا، بل صريع الحياة - في تلك الثانية انزاحت كراهيتي وابتعدت عني كموجةٍ على الشاطئ، ولم يبقَ داخلي سوى شعورٍ بالخواء. انكسرت خشبة من السور - لقد مرق الموت بجانبي ولم تفصل بينه وبيني سوى شعرة. في تلك اللحظات يحاول المرء أن يكون طيّباً. وهكذا لم أضنّ، لاحقاً، على الباروكة بالنصر المتوهَّم عليّ.

في الصباح التالي، كان يسير أمامي رجلٌ آخر جعلني على الفور أنسى الباروكة. كان يبدو كاذباً كعالم لاهوت، ولكني أعتقد أنه مُنح خصّيصاً إجازةً من جهنّم لكي يجعل قطفي للزهرة مستحيلاً تمام الاستحالة.

كان يلفت الأنظار على نحوٍ يتسم بالوقاحة. كلّهم كانوا يضحكون

عليه ويسخرون منه؛ حتى الكلاب الزرقاء الشاحبة لم تستطع أن تكبت ضحكة شماتة، كانت تبدو غريبةً إلى أقصى حدّ. من الرأس حتى أخمص القدم كان سمت موظفي الدولة ظاهراً عليهم - غير أن الهيبة البدائية التي تشعّها الوجوه المتبلّدة للجنود الموظفين في الجيش باتت مسخاً مشوّهاً. لم يقصدوا الضحك، كلا، والله! لكنهم كانوا مرغمين على ذلك. أتعرف ذلك الشعور المتعالي، عندما تكون غاضباً من شخص، عندما تكونان نموذجين للخصام، ثم يحدث شيءٌ هزليّ يجبر كلاً منكما على الضحك - مع أنكما لا تريدان الضحك، حقّاً لا! غير أن الوجه يبدأ في الاتساع، ويأخذ تلك الملامح المعروفة التي لا يمكن وصفها إلا بالتعبير الرائع «ضحكة صفراء». هذا ما حدث للزُّرق، وكان ذلك هو الشعور الإنساني الوحيد الذي لاحظناه عليهم في يوم من الأيام. نعم، هذا اللاهوتيّ كان مثل حشرة العثّ! ماكر إلى حدّ الجنون، غير أنه لم يكن مجنوناً إلى الحدّ الذي يقلّل من مكره.

كنّا سبعةً وسبعين رجلاً في حوش السجن، محاصَرين بنباح عصابةٍ تتكوّن من اثني عشر من حاملي المسدسات الذين يرتدون الزيّ الرسمي. ربما كان بعضهم يمارس مهنة النباح منذ عشرين سنة أو أكثر، إذ إن فمَ بعضِهم بات عبر السنين التي حرس فيها آلاف المرضى يشبه خطم كلب. غير أن هذا التقارب مع مملكة الحيوان لم ينتقص من غرورهم. من الممكن استخدام كلٍّ منهم -كما هو- كتمثال يُكتب عليه: «أنا الدولة» (L'Etat c'est moi).

رجل اللاهوت (في ما بعد عرفت أنه في الحقيقة حدّاد وقد توفّي خلال عمله في إحدى الكنائس - الله يرحمه!) كان مجنوناً أو ماكراً إلى حدّ أنه كان يحترم هيبتهم احتراماً كاملاً. ماذا أقول - يحترم؟ كان ينفخ الهيبة في

الرجال الزرق إلى أن يتحوّلوا إلى بالون هوائي ذي أبعاد لا يدركها أحد، ولا حتى حاملو الهيبة أنفسهم. حتى وإنْ وجدوا أنفسهم مجبرين على الضحك من حُمقه، فإنّ العجرفة كانت تنفخ سرّاً بطونهم التي تبرز تحت الحزام الجلدي المشدود.

في كلّ مرّة، كان اللاهوتي يمرّ بكلاب الحراسة التي كانت تقف فاتحة سيقانها مستعرضةً سلطتها، وكلّما سنحت الفرصة كانت تنطلق في اتجاهنا لتعضّنا؛ وفي كلّ مرّة، كان ينحني انحناءةً تبدو صادقة للغاية، ثم يقول بكلّ حرارة وأدب وطيبة: «عيد مبارك، سيدي الحارس!». كان يقولها على نحوٍ لا يمكن أن يجعل أيَّ إله يغضب عليه، فضلاً عن تلك البالونات الهوائية المتعجرفة داخل الزيّ الرسمي. كان ينحني في تواضعٍ بالغ ويبدو في كلّ مرّة وكأنه يتجنّب صفعةً موجّهة إليه.

والآن، ها هو ذا الشيطان قد جعل من هذا اللاهوتيِّ المضحكِ هو الرجلَ الذي يسير أمامي. كان يشعُّ جنوناً ملَكَ عليّ نفسي حتى كدت أنسى عشيقتي الجديدة الصغيرة، سِنّ الأسد. لم يعد بمقدوري أن أرسل إليها نظرة حنون، إذ كان عليّ أن أخوض صراعاً مجنوناً مع أعصابي كان يدفع بعرق الخوف دفعاً من كلّ مسامّ بشرتي. في كلّ مرّة كان اللاهوتيّ ينحني ويقول جملته «عيد مبارك، سيدي الحارس!» وكأنها قطرة عسل تنساب فوق لسانه، عندئذٍ أبذل جهداً كبيراً للتحكّم في عضلاتي حتى لا أقلّده. كانت الغواية عظيمة حتى أني أومأت بلطفٍ عدّة مرّات في وجه نُصب الدولة التذكارية، ولم أنجح في الإحجام عن الانحناء والبقاء صامتاً إلا في اللحظة الأخيرة.

كنّا ندور يومياً نحو نصف ساعةٍ في الحوش، أي في اليوم عشرين دورة، بينما كان اثنا عشر زيّاً رسمياً يحيطون بدائرتنا. كان اللاهوتي إذاً

ينحني على الأقل 240 مرّة في اليوم، و240 مرّة كان عليّ أن أكون في كامل تركيزي حتى لا أُجنّ. كنت أعرف أني لو فعلت ذلك لمدة ثلاثة أيام لكنت حصلت على حكمٍ مخفّف، غير أن ذلك كان يتعدّى قدراتي. كنت أعود إلى زنزانتي منهَكاً غاية الإنهاك. ولكنّي كنت طيلة الليل أسير في الحلم أمام صفٍّ لا نهائيّ من لابسي الزيّ الأزرق؛ كلٌّ منهم يبدو مثل بسمارك، وطيلة الليل كنت أنحني انحناءةً عميقة أمام الملايين من «بسمارك»، بزيِّهم الأزرق الشاحب، وأنا أقول: «عيد مبارك، سيدي الحارس!».

في اليوم التالي نجحت في أن أترك الطابور يمرُّ أمامي فأصبح رجلٌ آخر يسير أمامي. انخلع قبقابي، ثم اصطدته بصعوبة بالغة، وهكذا عدت وأنا أعرج إلى داخل السور الخشبي. الحمد لله! أشرقت الشمس من أمامي. لا، بل أظلمت. السائر الجديد أمامي كان طويلاً إلى حدٍّ فظيع، لدرجة أني بطولي البالغ 180 سم اختفيت تماماً في ظلِّه. هناك، إذاً، عنايةٌ إلهيّة – على الإنسان أن يساعدها بالقبقاب فحسب. أعضاؤه الطويلة طولاً غير إنساني كانت تتداخل بعضها في بعضٍ، بشكلٍ عبثيّ، أما الغريب فهو أنه كان يتحرّك إلى الأمام رغم أنه بالتأكيد لم يكن يعلم ماذا تفعل قدماه أو ذراعاه. كدت أشعر بالحب تجاهه – نعم، كنت أصلّي كي لا يسقط فجأة ميتاً مثل الباروكة، أو أن يُجنّ، أو يبدأ في الانحناء انحناءاتٍ جبانة. دعوت له بطول العمر والصحة العقلية. كنت أشعر بالطمأنينة في ظلِّه إلى الحدّ الذي جعل نظراتي تعانق زهرتي الصغيرة وقتاً أطول من المعتاد، من دون أن أشعر بالخوف من أني بذلك أفضح نفسي. بل إني سامحت هذا الرجل الرائع السائر أمامي ولم ألتفت إلى أنفه الفظيع، كما أني تكرّمتُ ولم أطلق عليه أيَّ اسم مستعار، مثل «الناي» أو «القرموط» أو «عابد الربّ». لم أكن أرى سوى زهرتي – ولم يهمّني في شيء أن يكون السائر أمامي طويلاً

وأهبل! كان اليوم مثل غيره. الفارق الوحيد بينه وبين الأيام الأخرى هو أن نبض سجين الزنزانة 432 في نهاية النصف ساعة كان سريعاً سرعة جنونية، وأن عينيه كانتا تُظهران أنه يدّعي البراءة وأنه لا يحسن إخفاء قلقه.

شرعنا في الدوران الدورة قبل الأخيرة – مرّةً أخرى دبّت الحياة في سلاسل المفاتيح. كان السور الخشبي يغفو في أشعة الشمس الضنينة التي بدت وكأنها محبوسة إلى الأبد خلف القضبان.

ولكن، ما هذا؟ أحد الألواح الخشبية لم يكن يغفو على الإطلاق! كان في تمام يقظته، ولانفعاله كان يغيِّر كلّ بضعة أمتار طريقة سيره. ألا يلاحظ ذلك أيُّ إنسان؟ لا. وفجأة انحنى اللوح رقم 432 عابثاً بجوربه الذي انزلق إلى أسفل، ثم توجّهت إحدى يديه بسرعة البرق إلى زهرةٍ صغيرة مرعوبة، وقطفتْها – ولم تلبث الألواح السبعة والسبعون أن واصلت دورتها الأخيرة بخُطاً وئيدة، كالمعتاد.

أيُّ عجبٍ في هذا: صبيّ متعالٍ، نادم، من عصر أسطوانات الغراموفون وأبحاث الفضاء، يقف في الزنزانة رقم 432 تحت كوةٍ في أعلى الجدار، ممسكاً بيديه اللتين تعانيان من العزلة زهرةً صغيرةً صفراء في شعاع الضوء النحيل، زهرة سنّ الأسد العادية تماماً. ثم يرفع هذا الإنسان -الذي كان معتاداً على شمِّ البارود والعطر والبنزين والجِنّ وأحمر الشفاه- الزهرةَ، ويقرِّبها من أنفه الجائع الذي لم يشمّ طيلة شهور سوى رائحة خشب سريره الصغير، والغبار، وعرق الخوف، ويمتصّ، بنهمٍ، جوهرها عبر الأوراق الصفراء الصغيرة حتى يغدو كلّه أنفاً.

شيء ما يتفتّح داخله، ويفيض مثل ضوءٍ في الغرفة الضيّقة، شيء لم يعرفه من قبل أبداً: حنان وطمأنينة ودفء لا مثيل له. يملؤه هذا الشعور ويجذبه إلى الزهرة.

لم يعد يتحمّل الغرفة، فأغلق عينيه واندهش: لكن رائحة الطين تتصاعد منك. رائحة الشمس والبحر والعسل، أيتها الحبيبة المفعمة بالحياة! شعر ببرودتها العفيفة، وذكّرته بصوت أبيه الذي لم يلتفت إليه يوماً، والذي وهبه الآن عزاء عظيماً بصمته - شعر بالزهرة كأنها كتفٌ منير لامرأة داكنة اللون.

بحرصٍ حملها مثل عشيقة وسار بها إلى كوب الماء، ووضع هذا الكائن الصغير المجهد فيه، ثم احتاج إلى دقائق عديدة حتى جلس ببطء بالغ، وجهاً لوجه مع زهرته.

شعر بالاسترخاء التامّ وبالسعادة، فأزاح عن نفسه كلّ ما يثقل عليه: السجن، الوحدة، الجوع إلى الحب، قلّة حيلته بسنواته الاثنتين والعشرين، الحاضر والمستقبل، العالم والمسيحية - نعم والمسيحية أيضاً!

أمسى أحد سكّان جزيرة بالي السُّمر، «بدائيّاً» من شعبٍ «بدائيّ»، كان يخشى البحر والبرق والشجرة التي يتعبّد إليها. يقدِّس ثمرة الجوز وسمك القُد والطائر الرنّان، ويُعجب بها، ويأكلها، ولا يفهمها. إلى هذا الحدّ كان متحرِّراً، ولم يكن مستعدّاً لفعل الخير في حياته مثلما كان الآن عندما همس لزهرته: «... لو أصبح مثلك!».

طيلة الليلة كانت يداه السعيدتان تمسكان بصاج كوبه المألوف. شعر خلال نومه كيف أهالوا الطين فوقه، طيناً أسمر زكيّ الرائحة، وكيف تعوّد على الطين، وكيف أصبح مثله؛ وكيف ترعرعت زهور منه: شقائق النعمان والأنقولية وسِنّ الأسد. شموس ضئيلة تكاد لا تُرى.

يسوع يرفض الاستمرار

رقد غير مستريح في القبر المسطَّح. القبر ضيِّقٌ أشدّ الضيق كالمعتاد، لذا وجب عليه أن يثني ركبتَيه. أحسَّ ببرودةٍ ثلجيّة في ظهره. أحسّ بها كموتٍ متنامٍ. وجد السماء بعيدةً للغاية، بعيدة بعداً رهيباً يجعلك عاجزاً عن وصفها بالطيبة أو الجمال. كان بعدها عن الأرض رهيباً، وكلُّ هذه الزُّرقة التي تنثرها لم تقرِّب المسافة. الأرض قارصة البرودة، وعنيدة في تجمُّدها الثلجي، لذا كانت رقدة المرء غير مريحة في القبر الذي كاد يكون في مستوى الأرض. أعَلى الإنسان أن يرقد غير مستريح طيلة حياته؟ لا، بل وحتى طيلة موته، وهو ما يستمرّ زمناً أطول بكثير من الحياة؟

ظهر رأسان في السماء أعلى حافة القبر. قال أحد الرأسين مُخرجاً من فمه سحابة بخار أبيض كأنها قطعة قطن: «هل القبر مناسبٌ يا يسوع؟»، فأخرج يسوع من فتحتي أنفه سحابتين رقيقتين من الدخان الأبيض وقال: «نعم، مناسب».

واختفى الرأسان من السماء. كبقعتَيْ حبرٍ أُزيلتا فجأة، من دون أثر. لم يعد هناك إلا السماء ببعدها الرهيب.

جلس يسوع، فبرز جذعه من القبر قليلاً. بدا من بعيدٍ كأنّه دُفن حتى بطنه. ثم ارتكز بذراعه اليسرى على حافة القبر ونهض. وقف في القبر

متطلّعاً بحزنٍ إلى يده اليسرى. في أثناء نهوضه انفتق القفاز -الذي رتقه حديثاً- عند الإصبع الأوسط مرّة أخرى، فبرز طرفه المتجمِّد. حدّق يسوع في قفازه وحزن حزناً شديداً. وقف في القبر المسطّح تماماً، وأخذ ينفخ من فمه بخاراً دافئاً في اتجاه الإصبع العاري المتجمّد قائلاً بصوتٍ خافت: «لن أستمرّ معكم بعد الآن». قال له أحد اللذين أطلّا على القبر محدِّقاً فيه: «ماذا حدث؟»، فردّد يسوع مرةً ثانيةً بصوتٍ خافت: «لن أستمرّ معكم بعد الآن»، ووضع إصبعه الأوسط العاري البارد في فمه.

- هل سمعت يا شاويش؟ يسوع لن يستمرّ معنا بعد الآن.

كان الآخر -الشاويش- يحصي المتفجّرات في صندوق الذخيرة. زمجر قائلاً: «كيف؟»، ونفخ البخار الرطب من فمه في وجه يسوع: «هه، كيف؟». فأجاب يسوع بالصوت الخافت نفسه: «لا، لم أعد أستطيع». كان واقفاً في القبر مغمض العينين. بدا الثلج في ضوء الشمس باهر البياض على نحوٍ لا يُحتمل. أخذ يقول وهو مغمض العينين:

- في كلّ يومٍ نحفر القبور. كلّ يوم سبعة أو ثمانية قبور. بل لقد حفرنا بالأمس أحد عشر. في كلّ يوم نحشر الناس في قبورٍ لا تتسع لهم دائماً، فالقبور شديدة الضيق. في بعض الأحيان يتقوّسون أو يتصلّبون من البرودة. يصدر عنهم صرير عندما نحشرهم في القبور الضيقة. والأرض صلبةٌ وثلجية وغير مريحة. سيستمرّ بهم الحال هكذا طيلة الموت. وأنا، أنا لم أعد أستطيع سماع الصرير. إنه كصوت تهشُّم الزجاج. كالزجاج.

- اخرس يا يسوع! هيّا، اخرج من الحفرة! ما زال علينا أن نحفر خمسة قبور أخرى.

طار البخار الغاضب من فم الشاويش في اتجاه يسوع، فقال يسوع مُخرجاً خيطَيْ بخارٍ رقيقين من أنفه: «لا، لا».

كان يتحدّث هامساً ومغمض العينين:

- القبور مسطّحة تماماً. في الربيع ستُخرج الأرض عظامها من كلّ مكان. عندما تذوب الثلوج. العظام في كلّ مكان. لا، لا أريد بعد الآن. لا، لا. ودائماً أنا، عليّ دائماً أن أرقد في القبر لأختبر اتساعه. دائماً أنا. بمرور الأيام بدأت أحلم بهذا. إنه أمرٌ فظيع -أتعلمون؟- فظيع أن أكون دائماً مَن ينزل إلى القبور. دائماً أنا.

تطلَّع يسوع مرة أخرى إلى القفاز الممزَّق، واعتلى القبر المسطّح خارجاً منه، ثم سار أربع خطوات في اتجاه كومةٍ داكنة من الجثث التي التوت أعضاؤها، كأن الموت دهم أصحابها خلال رقصة وحشية. ترك يسوع معوَله بجانب كومة الجثث في هدوء وحذر. كان بإمكانه أن يُلقي بالمعوَل الذي لن يتلف بسبب ذلك، غير أنه وضعه في هدوء وحذر، كأنه لا يريد أن يزعج أحداً ولا أن يوقظه.

- بربِّك، لا توقظ أحداً! ليس مراعاة لهم فحسب، وإنما بدافع الخوف أيضاً. بدافع الخوف. بربِّك، لا توقظ أحداً!

واتجه صوب القرية سائراً على الثلوج التي تصدر صريراً، مارّاً بكليهما من دون أن يعيرهما أيّ انتباه.

يا له من أمرٍ بغيض! الثلوج تصدر الصرير نفسه. كان يرفع قدميه ويضعهما على الثلوج كأنه طائر، لا لشيء إلا ليتجنّب هذا الصرير.

صاح الشاويش: «يا يسوع! عُد فوراً! هذا أمر! عليك مواصلة العمل في الحال». صاح الشاويش، لكن يسوع لم يلتفت حوله. ومشى كالطائر على الثلوج، كالطائر، لا لشيء إلا ليتجنّب هذا الصرير.

وصاح الشاويش، لكنّ يسوع لم يلتفت. كلّ ما صدر منه كانت حركةً من يديه، كأنه يقول: بهدوء، بهدوء. بربِّك لا توقظ أحداً. لم أعد أريد

الاستمرار. لا، لا. دائماً أنا. دائماً أنا. وصغُر شيئاً فشيئاً حتى توارى خلف أحد الكثبان الثلجية.

«يجب أن أُبلغ عنه»، قالها الشاويش مخرجاً سحابة بخارٍ قطنيٍّ رطب إلى الهواء الثلجي: «لا بدّ من الإبلاغ عنه، لا تردُّد في ذلك. إنه عصيان للأوامر. نحن نعلم جميعاً أنه غير متوازن نفسياً. لكن لا بدّ من الإبلاغ عنه».

وسأله الآخر شامتاً:

- وماذا سيفعلون معه؟

- لا شيء غير ما يفعلونه الآن، لا شيء غير ذلك على الإطلاق.

وسجّل الشاويش اسماً في مفكّرته، ثم قال:

- لا شيء. سُيعرض على القائد العجوز. يطيب للعجوز دائماً أن يتحدث مع يسوع. سوف يعنِّفه، وسيمتنع يسوع عن الطعام والكلام لمدة يومين. ثم يُطلق سراحه. عندئذٍ يتصرّف بطريقة طبيعية لبعض الوقت. ولكن في البداية لا بدّ أن أبلغ عنه... لأن العجوز يطيب له أن يتحدّث معه. ولا بدّ من حفر القبور. ولا بدّ أن ينزل أحدهم ليختبر اتساعها. هذا الرفض لن يجدي نفعاً إذاً.

فسأله الآخر مبتسماً ابتسامة صفراء:

- ولمَ سُمِّي يسوع؟

- آخ! ليس هناك سبب. اعتاد العجوز أن يطلق عليه هذا الاسم لوداعته هذه. العجوز يراه وديعاً. منذ ذلك الحين يُسمَّى يسوع.

«نعم»، قال الشاويش، ثم راح يُعِدّ عبوة متفجرات جديدة للقبر التالي. «لا بدّ من الإبلاغ عنه، لا بدّ، لأنه لا بدّ من القبور».

الخبز

استيقظت فجأة. الساعة الثانية والنصف. راحت تفكّر في سبب يقظتها. آه، اصطدم شخصٌ في المطبخ بأحد الكراسي. أصاخت بسمعها ناحية المطبخ. كان البيت يلفّه السكون. سكونٌ عميق. وعندما تحسَّست الفراش وجدته خالياً. إذاً، فهذا هو سبب السكون غير المألوف. لقد خلت الحجرة من أنفاسه. نهضت وتلمّست طريقها إلى المطبخ عبر الشقّة المظلمة. في المطبخ تقابلا. الساعة الثانية والنصف. رأت شبحاً أبيض عند خزانة المطبخ. أضاءت المصباح. وقفا وجهاً لوجه في ثياب النوم. ليلاً. في الثانية والنصف. في المطبخ.

على مائدة المطبخ طبق الخبز. لاحظت أنه قطع لنفسه خبزاً. ما زال السكّين بجانب الطبق. وعلى المفرش تناثر فتات الخبز. عندما يذهبان للنوم في المساء، تقوم دائماً بتنظيف مفرش المائدة، كلّ مساء. ولكن على المفرش فتات. والسكّين أيضاً هناك. أحسّت ببرودة البلاط تتسلّل إليها ببطء. حوّلت نظرها عن الطبق.

قال وهو يتلفّت حوله في المطبخ:

- تصوّرتُ أن شيئاً ما هنا.

ردّت قائلة: وأنا أيضاً سمعت شيئاً.

لاحظتْ في تلك الأثناء أنه يبدو ليلاً في ثياب النوم هَرِماً، كعمره الحقيقي، 63. خلال النهار يبدو أصغر عمراً.

كم تبدو عجوزاً! قال لنفسه، إنها تبدو عجوزاً في ثياب النوم. لعلّ سبب ذلك هو الشعر. يرجع ذلك دائماً لدى النساء في الليل إلى الشعر. إنه يجعلهنّ فجأة طاعناتٍ في السنّ.

قالت له:

- كان عليك أن تلبس شيئاً في قدميك! حافياً هكذا على البلاط البارد! ستُصاب ببرد.

لم تنظر إليه، لأنها لم تستطع تحمُّل كذبه. يكذب بعد زواج دام تسعةً وثلاثين عاماً.

كرّر كلامه وهو يتنقّل ببصره من زاويةٍ إلى أخرى بنظراتٍ لا معنى لها:

- اعتقدت أن هناك شيئاً. سمعت صوتاً فاعتقدت أن هناك شيئاً.

أجابته قائلة:

- أنا أيضاً سمعت صوتاً. لكن بالتأكيد لم يكن هناك شيء.

رفعت الطبق من المائدة وأزالت الفتات من على المفرش.

ردّد في ارتباك:

- لا، بالتأكيد لم يكن هناك شيء.

ساعدته قائلةً:

- تعال! من المؤكد أن هذا الصوت كان في الخارج. تعال إلى الفراش، ستصاب بالبرد على البلاط البارد!

التفت ناحية النافذة وقال:

- نعم، لا بدّ أنه كان في الخارج. ظننت أنه جاء من هنا.

رفعت يدها إلى مفتاح النور، وقالت لنفسها: لا بدّ أن أطفئ النور الآن، وإلا سأنظر إلى الطبق. لا أريد أن أنظر إليه.

قالت له وهي تطفئ النور:

- تعال! كان هذا بالتأكيد في الخارج. المزراب يصطدم دائماً بالحائط عند عصف الريح. كان هذا بالتأكيد صوت المزراب. يصدر دائماً هذا الصوت عند عصف الريح.

وتحسّسا طريقهما عبر الممرّ المظلم إلى غرفة النوم. صدر عن أقدامهما العارية صوتٌ خافت خلال سيرهما على الأرض. ثم قال لها:

- نعم، هي الريح، فهي تهبّ طيلة الليل.

عندما رقدا على الفراش قالت:

- نعم، الريح تهبّ طيلة الليل. بلا شكّ، كان ذلك صوت المزراب.

- اعتقدت أن الصوت يأتي من المطبخ، لكنّه كان المزراب.

نطق بتلك الجملة وكأنه على وشك النعاس. لاحظَتْ كيف يبدو صوته زائفاً عندما يكذب.

قالت له وهي تتثاءب بصوتٍ خفيض:

- الجوّ بارد. سأندسّ تحت الغطاء. تصبح على خير!

أجابها:

- وأنت من أهله.

ثم أضاف: نعم، الجوّ بارد فعلاً.

وساد الصمت. مرّت دقائق كثيرة قبل أن تسمع صوته الخافت الحذر وهو يمضغ. تعمّدت أن تتنفّس بانتظام وعمق كي لا يلاحظ أنها لم تنم بعد. غير أن إيقاع مضغه كان رتيباً إلى درجة أنها شيئاً فشيئاً نامت عليه.

عندما عاد إلى المنزل في مساء اليوم التالي، قدّمت له أربع شرائح من الخبز. كان لا يأكل حتى ذلك اليوم سوى ثلاث.

قالت له وهي تبتعد عن المصباح:

- لك أن تأكل أربع شرائح. لم تعد معدتي تستطيع هضم هذا الخبز جيداً. فلتأكل أنت شريحةً أكثر! أنا لا أهضمه بسهولة.

رأته وهو ينحني على الطبق حتى كاد يلامسه. لم يرفع نظره. شعرت نحوه بالإشفاق في تلك اللحظة. قال لها وهو منكبٌّ على طبقه:

- لكنّ شريحتين لا تكفيانك؟

- بلى. معدتي لا تتحمّل هذا الخبز في المساء. كُلْ أنت. كُل!

لم تجلس إلى المائدة، تحت المصباح، إلا بعد مرور برهة من الوقت.

الملوك السُمر الثلاثة

تلمّس طريقه عبر الضاحية المظلمة. البيوت المهدّمة ترنو إلى سماءٍ غاب عنها القمر. تحت وقع خطواته المتأخرة أصيبت الحجارة التي تكسو الشارع بالفزع. وجد لوحاً خشبياً قديماً، فضغط عليه بقدمه إلى أن تنهّدت قطعةٌ هشّة منه وانكسرت. فاحت من الخشب الطريّ رائحةٌ زكيّة. عبر الناحية المُعتمة تلمّس طريقه عائداً تحت سماء خلت من النجوم.

عندما فتح الباب (الذي بكى خلال ذلك)، رأى عيني زوجته الزرقاوين الشاحبتين تحدّقان فيه. جاءته النظرة من وجهٍ مجهَد. من شدّة البرودة ظلّ بخار تنفّسها الأبيض عالقاً في الحجرة. ثنى ركبته المتصلّبة وكسر الخشب. تنهّد الخشب، ثم فاحت في المكان كلِّه رائحةٌ زكيّة نديّة. أمسك قطعةً ووضعها تحت أنفه، وقال ضاحكاً بصوت خافت: تفوح منه رائحةٌ كرائحة الكعك.

«لا»، قالت له زوجته، «لا تضحك! إنه نائم».

وضع الرجل الخشب الطريَّ ذا الرائحة الزكية في مدفأة صغيرة من الصفيح. توهَّج الخشب وانبعث منه بصيص ضوءٍ دافئ انتشر في أرجاء الحجرة، فسطع على وجهٍ رقيق مستدير، وبقي لبرهة. الوجه لطفلٍ عمره ساعة فقط، ومع ذلك فهو يحمل السمات الكاملة للوجه: أذنان وأنف وفم

وعينان. لا بدّ أن العينين واسعتان، باستطاعة الإنسان أن يستشفّ ذلك رغم أنهما مغلقتان. لكنّ الفم مفتوح. ومنه يتنفّس الوليد بصوت خافت. الأنف والأذنان متورّدة، بينما كان الوجه الصغير مستغرقاً في النوم. قالت الأم لنفسها: إنه مفعم بالحياة.

قال الرجل: ما زال هناك قليلٌ من عصيدة الشوفان.

فأجابته زوجته: نعم. إنها لذيذة، لكنّها باردة.

وأمسك الرجل بالخشب الطريّ زكيّ الرائحة، وقال لنفسه: لا بدّ أنها تشعر بالبرد، فقد وضعت الطفل لتوّها. لم يجد أحداً ينهال على وجهه باللكمات حتى يُفرغ شحنة غضبه. عندما فتح باب المدفأة سطع بصيص ضوء مرة أخرى على الوجه النائم. قالت زوجته بصوتٍ خافت: انظر، كأنه هالة تحيط برأس قدّيس، أترى؟

فقال لنفسه: هالة! ولم يجد أحداً ينهال على وجهه باللكمات.

عندئذٍ ظهر أشخاصٌ عند الباب. قالوا له:

- رأينا ضوءاً آتياً من النافذة. نريد أن نستريح عشر دقائق.

فأجابهم الرجل: ولكن، عندنا طفل.

لم ينطقوا بكلمة. دخلوا إلى الحجرة على أطراف أصابعهم والبخار يتصاعد من أنوفهم.

همسوا: سنتحرّك بهدوء تامّ. ومشوا على أطراف الأصابع. عندئذٍ سطع الضوء عليهم. ثلاثة رجال يرتدون أزياء عسكرية بالية. أمسك أحدهم بعلبةٍ من الكارتون، والآخر بكيس، أما الثالث فلم تكن له يدان. قال رافعاً بقايا ذراعيه:

- تجمّدتا.

ثم قرّب جيب معطفه من الزوج. كان بداخله تبغٌ وورق سجائر. لفّوا بضع سجائر. غير أن الزوجة قالت:

- لا، الطفل!

فاجتاز الأربعة الباب. كانت سجائرهم أربع نقاط في الليل. أحدهم كانت قدماه متورّمتين ومربوطتين. أخرج قطعة خشبٍ من الكيس، وقال:

- حمار. ظللت أنحتُ في هذه القطعة سبعة أشهر. للطفل.

قال ذلك معطياً الزوج الحمار الخشبي، فبادره بالسؤال:

- وماذا حدث لقدميك؟

فأجاب نحّات الحمار:

- ماء. بسبب الجوع.

فسأل الزوج وهو يتحسّس الحمار في الظلام:

- والآخر، الثالث؟

كان الثالث يرتعش في زيّه، فهمس قائلاً:

- أبداً، إنها الأعصاب. كان خوفنا هائلاً.

ثم دعسوا السجائر بالأقدام، ودخلوا ثانية. ساروا على أطراف الأصابع متطلّعين إلى الوجه الصغير النائم. أخرج المرتعش من علبة الكارتون قطعتين صفراوين من البونبون، وقال:

- إنهما للسيّدة.

اتسعت عينا الزوجة الزرقاوان الشاحبتان عندما رأت الثلاثة القادمين في الظلام ينحنون على الطفل. تملّكها الخوف، غير أن الطفل مدَّ قدميه دافعاً صدر أمه، وصارخاً بصوتٍ عالٍ حتى أن الثلاثة السُّمر مشوا على الأطراف وتسلّلوا من الباب. عندئذٍ، أومَؤوا ثانية، ثم غيّبهم الليل.

ظلَّ الزوج يتبعهم ببصره، ثم قال لزوجته:

- عجيبٌ أمر هؤلاء القدّيسين!

ثم أغلق الباب، وغمغم وهو ينظر إلى عصيدة الشوفان:

- قدّيسون طيّبون.

لكنه لم يجد وجهاً يسدِّد إليه لكماته.

همست زوجته:

- لكن الطفل صرخ، صرخ بصوتٍ هائل. وعندئذٍ ذهبوا.

ثم أضافت مفتخرة: انظر كيف ينبض بالحياة!

فتح الوجه فمه وصرخ. سألها الزوج:

- أيبكي؟

فأجابت:

- لا أعتقد. إنه يضحك.

فقال الرجل وهو يشمّ الخشب:

- كرائحة الكعك. كالكعك. رائحة زكيّة.

قالت الزوجة:

- واليوم هو عيد الميلاد أيضاً.

فغمغم: نعم، عيد الميلاد.

وسطع بصيص ضوءٍ من المدفأة على وجه الطفل المستغرق في النوم.

انتهى... انتهى

في بعض الأحيان يقابل نفسه. يأتي إلى ذاته بخطواتٍ متراخية وأكتاف متهدّلة، وشعرٍ طال حتى غطّى إحدى أذنيه. تصافحا. لم يشدّ على يده. حيّاه قائلاً:

- مرحباً.

- مرحباً. من أنت؟

- أنت.

- أنا؟

- نعم.

فسأل نفسه:

- لمَ تصرخ في بعض الأحيان؟

- إنه الوحش.

- الوحش؟

- وحش الجوع.

ثم سأل نفسه:

- لمَ تبكي كثيراً؟

- الوحش، الوحش.

- الوحش؟

- وحش الحنين إلى الوطن. إنه يبكي. ووحش الجوع. إنه يصرخ. ووحش الأنا. إنه يفرّ.

- إلى أين؟

- إلى المجهول، فلا مفرّ. حيثما أذهب أقابلني، غالباً في الليالي. لكني أواصل الفرار. وحش الحب يهاجمني، ووحش الخوف ينبح أمام النوافذ التي تقف خلفها الفتاة بجانب فراشها. يصرّ مقبض الباب، ضاحكاً ضحكة خافتة. وأفرّ. ألاحق نفسي دوماً. ومعي وحش الجوع في البطن، ووحش الحنين إلى الوطن في القلب. لكن لا مفرّ. دائماً أقابلني في كلّ مكان. لا أستطيع الفرار مني.

مع نفسه يتقابل في بعض الأحيان. وسرعان ما يعاود الفرار. يمرّ من تحت النوافذ وهو يصفر، وأمام الأبواب وهو يسعل. أحياناً يوقفه قلب ويدعوه لقضاء الليل، يدٌ أو قميص منزلق من كتف، من صدر، من فتاة. أحياناً توقفه إحداهن لقضاء ليلة. وعندما تكون له وحده ينسى الآخر خلال تبادل القبلات، الآخر الذي هو نفسه، فيضحك. ويعاني. جميل أن تؤنسك إحداهن، فتاة ذات شعر طويل وثياب داخلية فاتحة اللون، أو ثياب كانت يوماً فاتحة ومنقوشة بالزهور. وإذا كانت تضع على شفتيها شيئاً من الأحمر فسيكون ذلك جميلاً. سيكون هناك شيء ملوّن. وعندما يهبط الظلام فمن الأفضل أن يكون مع إحداهن. عندئذٍ لن يكون الظلام بمثل هذا الاتساع. عندئذٍ لن يكون الظلام بمثل هذه البرودة. سيبدو فمها وعليه أحمر الشفاه كمدفأة صغيرة متّقدة. هذا جميل في الظلام. والثياب الداخلية، وإن كان المرء لا يراها. لكن الآخر لا يفارقه حيثما ذهب.

عرف واحدةً كانت بشرتها في الصيف كالورد البرّيّ. كالبرونز. وشعرها كشعر الغجر. يميل إلى الزرقة أكثر منه إلى السواد. كالغابة كان شعرها مشعّثاً. تناثر الزغب الأشقر على ذراعيها مثل ريش الكتاكيت. وكان صوتها مغناجاً كعاهرات الميناء. كانت ساذجة تماماً. اسمها كارين.

واحدة أخرى اسمها «ألي»، كان شعرها الذهبي الأشقر يبرق كرمل البحر. وعندما تضحك، كان أنفها يتقوّس، وتعضّ على شفتها السفلى. ولكن بعد برهة جاء رجل. كان زوجها.

أمام أحد الأبواب وقف رجلٌ يتضاءل شيئاً فشيئاً. كان نحيلاً أشيب. قال: حسن يا بني. بعد ذلك أدرك أنه أبوه.

أما تلك الفتاة ذات الساق المضطربة الشبيهة بعصا الطبل، فكان اسمها كارولا. ساقها كساق غزال. عصبية. عيناها تصيبان بالجنون. أسنانها الأمامية متباعدة بعض الشيء. هذه كان يعرفها.

ليلاً يقول العجوز أحياناً: حسن، يا بني.

إحداهن كانت بدينة الخصر. كان يتردّد عليها. تفوح منها رائحة الحليب. اسمها شائع، لكنه نسيه. انتهى الأمر. في الصباح. تشدو العنادل أحياناً في دهشة، لكن أمّه في مكانٍ بعيد ناء، والأشيب النحيف لم يعد ينطق. إذ لا أحد يجيء.

سارت قدماه من تلقاء ذاتها: انتهى، انتهى.

في الصباح عرفت العنادل أنه انتهى، انتهى.

أسلاك البرق تدقّ: انتهى، انتهى. والعجوز لم يعد يقول: انتهى، انتهى.

وفي المساء تضع الفتيات أيديهن على البشرة المتلهّفة: انتهى، انتهى. والأقدام تسير من تلقاء ذاتها: انتهى، انتهى.

كان لإنسانٍ أخٌ. تصادقا. لكن قطعةً من المعدن أصابته مخترقة الهواء وهي تطنّ كحشرةٍ سخيفة. كانت الحرب مشتعلة. صفعت قطعة المعدن بشرته كنقطة مطر: تفجَّر الدم كزهرة خشخاش نبتت فجأة وسط الثلوج. السماء لازوردية، لكنها لم تمتصّ الصرخة. لم تكن آخر صرخة خرجت من فمه هي: وطني. لم تكن: أمّي، أو إلهي. آخر صرخة صرخها كانت مريرة حادّة: أعطوني خلّاً!

كانت صرخة لاعنة خافتة: خلّاً! ولم ينطق بشيء آخر، إلى الأبد. انتهى.

لم يعد النحيف الأشيب، أبوه، يقول: حسن يا بني. لم يعد. لقد انتهى كلّ شيء. كلّ شيء.

أربعة جنود

أربعة جنود. من خشبٍ وجوعٍ وترابٍ خُلقوا. خُلقوا من عاصفةٍ ثلجية وحنين إلى الوطن وشعر لحية. أربعة جنود. فوقهم تزأر القنابل، ثم تحفر طريقها في الثلوج ناثرةً سمومها. برزت عظام وجوههم الضائعة حادّة الزوايا في سناج ضوء القنديل. أحد الرؤوس الخشبية كان وحده يضحك عندما يصرخ الحديد الهابط ثم ينفجر عاوياً، عواءً فظيعاً. في إثر ذلك كان الآخرون يبتسمون ابتسامة رمادية، فيهتزّ بخوفٍ ضوءُ القنديل.

أربعة جنود. خطّان في شعر اللحية تختلط زرقتهما بحمرة: يا إلهي! لا يحتاج المرء إلى أن يحرث الأرض هنا في الربيع. ولا أن يسمّدها أيضاً. من الأرض يتصاعد صوت مبحوح.

راح أحدهم يلفّ سيجارة مطمئناً: آمل ألا يكون هذا حقل شمندر. أطيق الموت ولا أطيق الشمندر. ولكن، مثلاً، ما رأيكم بالفجل؟ الفجل إلى الأبد؟

تضاءلت الشفتان الزرقاوان الحمراوان: لو لم تكن هناك ديدان. على المرء أن يتعوّد عليها. لا مفرّ.

فقال الجالس في الركن: لكنك لن تلاحظ شيئاً عندئذٍ.

من قال ذلك؟ -تساءل الذي يلفّ السيجارة- كيف؟ من قال ذلك؟

ران الصمت عليهم. كان الموت الضاري أعلاهم يتجوّل في الليل، ثم مزّق الجليد. بلونه الأزرق المائل للسواد. عندئذٍ تبادلوا الابتسامات الباهتة مرّة أخرى. تطلّعوا إلى الألواح الخشبية فوقهم، غير أن الألواح لم تعِدهم بأيّ شيء.

عندئذٍ سعل الجالس في الركن: «سنرى. ثِقوا بهذا!».

صدرت كلمة «ثقوا» مبحوحة من فمه حتى أن ضوء القنديل تأرجح.

أربعة جنود. التزم أحدهم الصمت. راح إصبعه يتزحلق على البندقية صاعداً هابطاً. صاعداً هابطاً. صاعداً هابطاً. التصق ببندقيته. غير أنه لم يكن يكره شيئاً مثل هذه البندقية. لم يكن يتشبّث بها إلا عندما يسمع زئيراً فوقه. كان ضوء القنديل يهتزّ بخوف في عينيه.

عندئذٍ نفخ لافف السجائر دخانه في وجهه. ارتعد القصير ذو البندقية المكروهة، ومسح بيده حول فمه مارّاً على أدغال لحيته. وجهه ليس إلا جوعاً وحنيناً.

عندئذ قال لافف السجائر: «أنت، ناوِلني هذا القنديل الواهن!».

«تفضَّل!» قال القصير واضعاً البندقية بين ركبتيه. سحب يده من المعطف وتناول القنديل ومدّه في اتجاهه. لكن يده هزّت الضوء فانطفأ. انطفأ.

أربعة جنود. كان صوت تنفّسهم عظيماً ووحيداً تماماً في الظلام. عندئذٍ جلجلت ضحكة القصير الذي وضع يده على ركبته قائلاً: يا شباب، يدي ترتعش! هل رأيتم ذلك؟ لقد اهتزّ القنديل في يدي. الرعشة أصابت يدي.

وجلجلت ضحكة القصير. التصق في الظلام بالبندقية التي كان يكرهها بشدّة. فقال الجالس في الركن لنفسه: لا أحد بيننا لا يرتعش، لا

أحد. ثم قال لافف السجائر: نعم، الواحد منا يرتعش طوال اليوم. البرد هو السبب. هذا البرد اللعين.

عندئذٍ زأر الحديد فوقهم ممزقاً الليل والجليد.

«سيُتلفون كلّ الفجل»، قال ذو الشفتين الزرقاوين الحمراوين مبتسماً. والتصقوا ببنادقهم المكروهة. وضحكوا. ضحكوا على الوادي المظلم. المظلم.

الجرذان أيضاً تنام في الليل

تثاءبت نافذة في السور الموحش وفغرت فاها، فانتشر ضوء شمس الأصيل وقد اختلطت حمرته بزرقة. سحُب الغبار تلمع بين بقايا المداخن المائلة. الأطلال والخرائب تتهيّأ للنوم.

كان مغمض العينين عندما شعر بازدياد الظلام فجأة. لا بدّ أن أحداً تسلّل في الظلام والسكون، والآن يقف أمامه. قال لنفسه: لقد ضبطوني! عندما فتح عينيه نصف فتحة لم يرَ إلا ساقين ترتديان سروالاً رثّاً بعض الشيء. كانت الساقان مقوّستين حتى أنه استطاع أن يمدّ بصره خلالهما. خاطر بنظرةٍ خاطفة إلى أعلى السروال، فلمح رجلاً مسنّاً في يده سلّة ومطواة وقد علا الطين أنامله.

- أنت تنام هنا، أليس كذلك؟

سأله الرجل مارّاً ببصره من شعر الفتى الأشعث حتى قدميه.

فتح «يورغن» عينيه فتحة ضئيلة، وأرسل النظر عبرَ ساقَي الرجل ليرنو إلى الشمس، وقال:

- لا. لست نائماً. لا بدّ أن أحرس المكان.

فأومأ الرجل:

- هكذا، ولهذا تحمل هذه العصا الكبيرة بالطبع؟

فأجاب يورغن بشجاعة وهو يُحكم قبضته على العصا:

- نعم.

- وماذا تحرس إذاً؟

فقال له وقد ازدادت قبضته إحكاماً على العصا:

- لا أستطيع أن أقول لك.

- بالتأكيد تحرس نقوداً، أليس كذلك؟

وأنزل الرجل السلّة، ثم أخذ يمسح المطواة بأعلى سرواله، فقال يورغن باحتقار:

- لا، لا أحرس نقوداً على الإطلاق، ولكن شيئاً آخر تماماً.

- ماذا إذاً؟

- لا أستطيع القول، ولكنه شيء مختلف تماماً.

- إذاً، لا تقل شيئاً، ولن أقول لك أيضاً ماذا أحمل في هذه السلة.

وركل الرجل بقدمه السلّة، ثم أغلق المطواة. فردّ يورغن بازدراء:

- أستطيع أن أتخيّل ما تحويه السلّة. إنّه علف للأرانب.

فقال الرجل متعجّباً:

- براڤو! أنت ولد شاطر، كم عمرك؟

- تسع سنوات.

- ياه، تسع سنوات! إذاً فأنت تعرف أيضاً كم حاصل ضرب ثلاثة في تسعة، أليس كذلك؟

فأجاب يورغن:

- طبعاً.

ثم أضاف لكي يكسب وقتاً:

- هذا شيء في منتهى السهولة.

ومدّ بصره عبرَ ساقي الرجل، وسأل مرّةً أخرى:

- ثلاثة في تسعة، أليس كذلك؟ 27 . كنت أعرف الإجابة بمجرّد أن سألتني.

- صحّ. ولديّ العدد نفسه من الأرانب.

أصبح فم يورغن على شكل دائرة عندما قال:

- 27؟

- بإمكانك أن تراها. معظمها لا تزال صغيرة. هل تريد؟

فأجاب يورغن بصوتٍ مهزوز:

- ولكني لا أستطيع. لا بدّ أن أحرس المكان.

- دائماً؟ حتى في أثناء الليل؟

رفع يورغن بصره إلى الساقين المقوّستين، ثم أضاف هامساً:

- منذ مساء السبت الماضي حتى الآن.

- ولا تذهب إلى المنزل مطلقاً؟ لا بدّ أن تأكل.

فرفع يورغن حجراً، كان تحته نصف رغيف وعلبة صفيح. وسأله الرجل:

- هل تدخِّن؟ ألديك غليون؟

فتشبّث يورغن بعصاه وقال متردّداً:

- أنا ألفُّ السجائر. لا أحبّ الغليون.

انحنى الرجل تجاه السلّة قائلاً:

- خسارة!... كان بإمكانك أن تتفرّج على الأرانب، خاصةً الصغيرة. وقد تختار لنفسك أحدها. لكنك لا تستطيع مغادرة المكان.

فقال يورغن بحزن:

- لا... لا أستطيع.

تناول الرجل السلّة، واعتدل، ثم قال:

- خسارة، لكنك لا بدّ أن تظلّ هنا.

واستدار الرجل، فقال يورغن بسرعة:

- سأقول لك إذا لم تُفشِ سرّي. أنا هنا بسبب الجرذان.

فرجعت الساقان المقوّستان خطوةً للوراء:

- بسبب الجرذان؟

- نعم، إنها تعيش على الجيفة، على البشر. إنها تتغذّى عليهم.

- مَن أخبرك بذلك؟

- معلّمنا.

- وأنت تحرس الجرذان؟

- ليست هي التي أحرسها.

ثم أردف بصوتٍ خافت تماماً:

- أخي. إنه يرقد هناك أسفل الجدار. هناك.

وأشار يورغن بعصاه إلى الجدران المتداعية:

- أصابت منزلنا قنبلة. فجأةً انطفأ النور في القبو. وانطفأ هو أيضاً. نادينا عليه. كان أصغر منّي كثيراً. في بداية عامه الرابع. لا بدّ أنه ما زال هنا. إنه أصغر منّي بكثير.

ونظر الرجل إلى شعر الصبيّ الأشعث، ثم قال فجأة:

- ألم يقل لكم معلّمكم إن الجرذان تنام في الليل؟

فهمس يورغن وقد بدا عليه فجأةً الإعياء الشديد:

- لا، لم يقل لنا ذلك.

فقال الرجل:

- ياه، معلِّم ولا يعلم ذلك؟! الجرذان أيضاً تنام في الليل. يمكنك أن تذهب ليلاً إلى المنزل وأنت مطمئنّ، فهي تنام دائماً في الليل، بل بمجرّد هبوط الظلام.

أخذ يورغن يحفر بعصاه حفراً قليلة العمق في الأنقاض. قال لنفسه: ليست كلّ حفرة سوى مهد طفل. في كل مكان ترى مهداً. عندئذٍ قال الرجل وقد أخذت ساقاه تهتزّان اهتزازا شديداً:

- أتعرف؟ سأطعم أرانبي بسرعة، وعندما يهبط الظلام سأمرّ لاصطحابك. قد آتي لك بأرنب صغير، أم ماذا تريد؟

واستمرّ يورغن يحفر في الأنقاض حفراً صغيرة. وأخذ يفكر: هذه الحفر أرانب وليدة. بيضاء، ورمادية، وبيضاء مختلطة بالرمادي. ثم قال بصوتٍ خافت ناظراً إلى الساقين المقوّستين:

- لا أعرف.

ثم أضاف:

- إذا كانت حقّاً تنام في الليل!

وقفز الرجل على أطلال السور وعبرَ الشارع، ثم قال:

- بالطبع، على معلّمكم أن يرحل إذا لم يكن يعرف ذلك.

عندئذٍ نهض يورغن وسأل الرجل:

- هل أستطيع أن أحصل على أرنب؟ أبيض، ربما.

فصاح الرجل خلال سيره:

- سأحاول. ولكن عليك أن تنتظرني حتى أعود. سأذهب معك عندئذٍ إلى المنزل. أتعرف؟ لا بدّ أن أقول لأبيك كيف يبني حظيرة للأرانب. ينبغي أن تعرفا ذلك.

فهتف يورغن:

- نعم، إني أنتظر. عليّ أن أحرس المكان حتى يهبط الظلام، وسأنتظرك بالتأكيد.

ثم أضاف صائحاً:

- ولدينا في المنزل ألواح خشبية أيضاً، بقايا صناديق قديمة.

غير أن الرجل لم يسمع هذه الجملة. كان يسير تجاه الشمس بساقيه المقوّستين. امتلأ الأفق بحمرة الشمس الغاربة، ورأى يورغن أشعة الشمس تنفذ عبر ساقيه المقوّستين. إلى هذا الحدّ كانت ساقاه مقوّستين. راح الرجل يؤرجح السلة يميناً ويساراً في انفعال. كان في السلّة علف للأرانب. علف أخضر للأرانب. غير أنّ لونه كان يميل إلى الرمادي بفعل تراب الأنقاض.

ساعة المطبخ

أثارت هيئته الانتباه، فتطلّعوا إليه وهو يُقبل ناحيتهم من بعيد. وجهه عجوز، غير أن مشيته توحي أنه في أوائل العشرين من عمره. جلس بوجهه العجوز جوارهم على الدكّة. ثم أراهم ما يحمله في يده:

- كانت هذه ساعة مطبخنا.

نطق بهذه الجملة محدّقاً في كلّ الجالسين على الدكّة في الشمس، متنقّلاً ببصره بينهم الواحد تلو الآخر.

- نعم، لقد عثرت عليها. هي ما بقيت لي.

كان يمسك أمامه بساعة المطبخ المستديرة الشبيهة بطبقٍ أبيض، وهو يتحسّس بإصبعه الأرقام الملوّنة بالأزرق. واصل حديثه معتذراً:

- نعم، أعرف أنها أصبحت بلا قيمة، وأعرف أيضاً أنها لا تتميّز بأيّ جمال. لا تبدو إلا كطبق، وخاصةً بلونها الأبيض. ولكني أعتقد أن الأرقام الزرقاء تبدو جميلة جداً. العقارب بالطبع ليست مصنوعة إلا من الصفيح، وهي أيضاً لم تعد تدور. لم تعد. من المؤكّد أن التلف أصابها من الداخل، لكنها ما زالت تبدو كما كانت دائماً. حتى لو لم تعد تدور.

ومرَّ بطرف إصبعه في حركة دائرية حذرة حول حافة الساعة الشبيهة بالطبق. وقال بصوت خافت:

- هي ما بقيت.

لم ينظر إليه الجالسون على الدكّة في الشمس. تطلّع رجل إلى حذائه، بينما أرسلت امرأة النظر إلى عربة أطفالها. عندئذٍ سأله أحدهم:

- لقد فقدت بالتأكيد كلّ شيء؟

فأجاب متظاهراً بالمرح:

- نعم، نعم، تخيّلوا، كلّ شيء. لم يبقَ لي سواها.

ثم رفع الساعة عالياً وكأنّ الآخرين لم يروها بعد. فقالت السيدة:

- لكنّها لم تعد تعمل.

- لا، لا. لم تعد. أعرف أنها عطلانة. ولكن في ما عدا ذلك فهي كما كانت تماماً: بيضاء وزرقاء.

وأراهم ساعته من جديد. ومضى يقول مضطرباً:

- على أنني لم أحكِ لكم بعدُ أجملَ ما في الأمر. أجمل ما في الأمر هو الآتي: تخيّلوا، لقد توقفت في الثانية والنصف، في تمام الثانية والنصف. تخيّلوا!

فقال الرجل ماطّاً شفته السفلى لإبراز أهمية ما يقوله:

- لا بدّ أن منزلك أصابته القنابل في الثانية والنصف. سمعت ذلك كثيراً. عندما تنفجر قنبلة، تتوقف كلّ الساعات. يحدث ذلك بسبب الضغط.

فتطلّع إلى ساعته متأملاً، ثم قال هازّاً رأسه:

- لا يا عزيزي. لا. أنت مخطئ. لا علاقة للقنابل بذلك. يجب أن لا ينصبّ كل حديثكم على القنابل. لا. في الثانية والنصف كان شيء آخر يحدث، لكنكم لا تعرفون. هذا هو المضحك في الأمر. لقد توقفت في

الثانية والنصف تماماً. ليس في الرابعة والربع أو في السابعة. في الثانية والنصف كنت أعود دائماً إلى المنزل. فجراً بالطبع. دائماً تقريباً في الثانية والنصف. هذا هو المضحك في الأمر.

وتطلّع إلى الآخرين، لكنهم حوّلوا أنظارهم عنه. تاهت عيونهم عنه. فأومأ لساعته قائلاً:

- عندئذٍ أكون جائعاً بالطبع، أليس كذلك؟ لذا أذهب على الفور إلى المطبخ. عادةً ما يحدث ذلك في الثانية والنصف تقريباً. عندئذٍ تدخل أمي. كانت تسمعني دائماً، مهما حاولتُ أن أفتح الباب في هدوء تام. وعندما أبدأ في البحث في المطبخ المعتم عمّا أسدّ به رمقي، يُضاء النور فجأة، وأجدها واقفة مرتدية السترة الصوفية، وحول عنقها الشال الأحمر. وحافية القدمين. دائماً حافية القدمين على بلاط مطبخنا. كانت تضيّق عينيها جدّاً لتقلّل من تأثير الضوء الباهر، فهي قد استيقظت لتوها، والوقت ليل. ثم تقول لي: أهكذا تعود متأخراً مرّةً أخرى؟!

لم تكن تزيد على ذلك. فقط: أهكذا تعود متأخراً مرة أخرى؟! ثم تسخّن لي طعام العشاء ناظرةً تجاهي وآنا أكل. كانت دائماً تدلّك قدميها إحداهما بالأخرى، فالبلاط قارس البرودة. لم تكن ترتدي خُفّاً في قدميها في الليل أبداً. ثم تجلس بجانبي طويلاً إلى أن أشبع، ثم أسمعها، عندما أكون قد أطفأت النور في غرفتي، وهي ترفع الأطباق. كان ذلك يحدث كلّ ليلة. وغالباً في الثانية والنصف. كنت أجد الأمر طبيعياً جداً: أن تجهّز لي الطعام في المطبخ في الثانية والنصف فجراً. كنت أجد ذلك طبيعياً جداً. وكانت تفعل ذلك دائماً. لم تكن تقول أكثر من: أهكذا تعود متأخراً مرة أخرى. في كل مرة تقول العبارة ذاتها. كنت أعتقد أن ذلك سيستمرّ إلى الأبد. بدا لي الأمر طبيعياً جداً. كل هذه الأمور كانت تحدث دائماً.

خيّم الصمت التامّ برهةً على الجالسين فوق الدكّة. ثم أكمل بصوت خفيض:

- أما الآن...

ونظر إلى الآخرين، لكنه لم يرَ أحداً.

عندئذٍ قال بصوتٍ خافت مخاطباً الساعة بوجهها المستدير الأبيض الأزرق:

- الآن، الآن أعرف أني كنت أعيش في الجنّة. الجنّة الحقيقية.

ساد صمت ثقيل بين الجالسين، ثم سألته المرأة:

- وعائلتك؟

فابتسم لها وقال مرتبكاً:

- آخ، تقصدين والديّ؟ آه، لقد ذهبا هما أيضاً. كلّ شيء ذهب. تخيّلي! كلّ شيء. ذهب كلّ شيء.

وحدّق فيهم واحداً إثر الأخر مبتسماً في ارتباك. لكنهم لم يبادلوه النظر، فرفع الساعة عالياً وضحك. وضحك: لم يبقَ سواها. وأجمل ما فيها أنها توقفت في تمام الثانية والنصف. في الثانية والنصف بالضبط.

لم ينطق بكلمةٍ أخرى. بدا وجهه هرِماً للغاية. كان الجالس بجواره يسدِّد البصر إلى حذائه. لكنّه لم يرَه. كان ذهنه مشغولاً بالتفكير في كلمة: «الجنّة».

الثلوج الكثيرة الكثيرة

تدلّت الثلوج من الأغصان. راح الجنديّ المسلّح بمدفعٍ رشّاش يغنّي. كان يقف في موقع حراسةٍ متقدِّم في إحدى الغابات الروسية. وانطلق يغنّي أغاني عيد الميلاد رغم أننا كنّا في بدايات شهر فبراير/ شباط. يعود ذلك إلى أن الثلوج كانت تعلو أمتاراً. الثلوج بين جذوع الشجر السوداء. الثلوج على الأفرع الخضراء التي يعلوها السواد. الثلوج لم تزل تتدلّى من الأغصان، كما تراكمت فوق الشجيرات، كالقطن، ثم التصقت بالجذوع السوداء. ثلوج كثيرة كثيرة. والقنّاص يغنّي أغاني عيد الميلاد رغم أننا كنّا وقتئذٍ في فبراير.

بين الحين والآخر لا بدّ أن تطلق بعض الطلقات النارية. وإلا تجمّد المدفع الرشاش. ما عليك إلا أن تُطلق في الظلام طلقةً إلى الأمام. حتى لا يتجمّد. فلتصوِّب على الشجيرات هناك. نعم، هناك. عندئذٍ تعرف أن أحداً لا يختبئ فيها. هذا يطمئن. يمكنك أن تطلق بهدوء كل ربع ساعة دفعة طلقات. هذا يطمئن. وإلا تجمّد هذا الشيء. عندما تطلق النار بين الحين والآخر فإن ذلك يكسر بعض الشيء السكون السائد. هذا ما قاله مَن سلّمه الحراسة. وأضاف أيضاً: عليك أن تُبعد الخوذة عن أذنيك. أمر من القيادة. على المرء في أثناء الخدمة أن يبعد الخوذة عن أذنيه. وإلا فلن يسمع شيئاً.

هذا أمر. ولكن المرء لا يسمع شيئاً على أي حال. السكون هو السائد. ليس هناك أقلّ صوت. خلال كلّ تلك الأسابيع. ولا أقلّ صوت. إذاً، بين الحين والآخر تطلق طلقة. هذا يطمئن.

هذا ما قاله. ثم وقف وحيداً. أبعد الخوذة عن أذنيه، فانقضّت البرودة عليهما بأصابع حادّة. كان يقف وحيداً. الثلوج تتدلّى من الأغصان، وتلتصق بالجذوع السوداء المشوبة بزرقة. الثلوج تتراكم فوق الشجيرات. أضحت أكواماً، ملأت الحفر، ومنها تطايرت. ثلوج كثيرة كثيرة.

وقف وسط الثلوج، فأمسى الخطر خافتاً، وبعيداً. ومع ذلك فمن الممكن أن يكون رابضاً خلفك. لكن الثلوج احتوته. وقف وسط الثلوج وحده في الليل، لأول مرّة يقف وحده، وشعر بأن الثلوج جعلت اقتراب الآخرين خافتاً للغاية. وبعيداً بعيداً. امتصّت الثلوج كلّ شيء. جعلت كلّ شيء خافتاً حتى أن النبض علا صوته في الأذنين. علا النبض علواً شديداً حتى أنه لم يعد يستطيع الإفلات منه. إلى هذه الدرجة امتصّت الثلوج كلّ شيء.

عندئذٍ سمع أنيناً. إلى اليسار. في الأمام. ثم يميناً. في اليسار مرة أخرى. وفجأة في الخلف. كتم القنّاص أنفاسه. هناك، مرّة أخرى. ثمة تنهيدة. ملأ التنهيد أذنيه وأصبح طنيناً عالياً. تنهيدة أخرى هناك. رفع ياقة المعطف. ارتعشت أصابعه وآلمته. شدّت الأصابع ياقة المعطف من دون أن تغطّي الأذن. هناك تنهيدة. تسرّب العرق بارداً من تحت الخوذة وتجمّد على جبينه. تجمّد هناك. بلغت درجة البرودة اثنتين وأربعين درجة تحت الصفر. من تحت الخوذة تسرّب العرق وتجمّد. تنهيدة في الخلف. وفي اليمين. في أقصى الأمام. ثم هنا. هناك. هناك أيضاً.

كان القنّاص يقف في الغابة الروسية. الثلوج تتدلّى من الأغصان.

والدم يطنُّ طنيناً عظيماً في الأذن، والعرق يتجمّد فوق الجبين. والعرق يسيل من تحت الخوذة. ثمة تنهيدة. شيء ما. أو شخص ما. لقد احتوته الثلوج وامتصّته. لهذا تجمّد العرق فوق الجبين. فالخوف كان في الأذن هائلاً. إذ ثمّة تنهيدة.

عندئذٍ أخذ يغنّي. غنّى بصوتٍ عالٍ فلم يعد يسمع الخوف، ولا الأنين. لم يعد العرق يتجمّد. غنّى. ولم يعد يسمع الخوف. غنّى أغاني عيد الميلاد، ولم يعد يسمع التنهيد. غنّى أغاني عيد الميلاد بصوت عالٍ في الغابة الروسية. فالثلوج تتدلّى من الأغصان الزرقاء الداكنة في الغابة الروسية. ثلوج كثيرة كثيرة.

فجأةً، انكسر أحد الأغصان. لاذ القنّاص بالصمت. استدار. انتزع المسدّس. حينئذٍ أقبل الشاويش ناحيته بخُطاً واسعة مخترقاً الثلوج.

سأُعدَم الآن رمياً بالرصاص، قال القنّاص لنفسه. غنّيت خلال الخدمة. والآن سأُعدم. ها هو ذا الشاويش قد أتى. انظر إلى مشيته. غنّيت خلال الخدمة وها هم يأتون ليعدموني. وأحكم قبضته على المسدّس.

عندئذٍ وصل الشاويش. استند عليه، وأجال بصره في ما حوله. ارتعش، ثم قال لاهثاً:

- يا إلهي! اسندني يا رجل! يا إلهي! يا إلهي!

ثم ضحك، وارتعشت يداه. وضحك: لقد سمعت أغاني عيد الميلاد. أغاني عيد الميلاد في هذه الغابة الروسية اللعينة. أغاني عيد الميلاد. ألسنا في فبراير؟ بلى، نحن في فبراير. ومع ذلك فالمرء يسمع أغاني عيد الميلاد. هذا يرجع إلى السكون المخيف. أغاني عيد الميلاد! إليك ألتجئ يا إلهي! اسندني يا رجل! اصمت. هناك. كلا. لا أسمع الآن شيئاً. ثم قال الشاويش لاهثاً: لا تضحك! وتشبّث بالجندي. لا تضحك. ولكن ذلك يرجع إلى

السكون. سكون منذ أسابيع. ولا أقلّ صوت. لا شيء. ثم يسمع المرء أغاني عيد الميلاد. شهر فبراير بدأ منذ أيام عديدة. لكن الثلوج هي السبب. إنها متراكمة هنا بكثرة. لا تضحك. أقول لك إن هذا يسبب الجنون. أنت هنا منذ يومين فحسب. ولكننا هنا منذ أسابيع. ولا أقلّ صوت. لا شيء. هذا يسبب الجنون. كلّ شيء ساكن دائماً. لا أقلّ صوت. لمدّة أسابيع. عندئذٍ يبدأ المرء يسمع أغاني عيد الميلاد. لا تضحك. بمجرد أن رأيتك اختفوا فجأة. يا إلهي. هذا يسبب الجنون. هذا السكون الأبدي. الأبدي!

وظلّ الشاويش يلهث. ويضحك. ثم تشبّث به. وتشبّث القناص به هو الآخر. ثم ضحكا معاً. في الغابة الروسية. في فبراير.

أحياناً يميل أحد الفروع من ثقل الثلوج، ويهبط بين الأغصان الزرقاء الداكنة. ومعه تنهيدة. خافتة تماماً. مرّة في الأمام. إلى اليسار. ثم هنا. وهناك أيضاً. تنهُّدات في كلّ مكان. فالثلوج تلتصق بالأغصان. ثلوج كثيرة كثيرة.

الكانغرو

صباحاً، الحرّاس يغالبون النعاس. ما زالت أغطيتهم مندّاة من الليل. كان أحدهم يتمدَّد على الأرض ويدقّ بقدميه مدندناً:

كان يا ما كان هناك كانغرو

كان يخيّط جرابه

بمبرد أصابع

لأنه يشعر بالملل فحسب

لأنه يشعر بالملل فحسب

لأنه ...

– اسكت! – قال الآخر. ظلَّ فجأة واقفاً.

– لأنه يشعر بالملل فحسب

لأنه...

– قلت لك: اسكت!

– ماذا حدث إذاً؟ – والتفت الراقد على الأرض تجاهه.

– ثمّة من يأتي من هناك.

– من؟

– لا أعرف. فأنا لا أرى شيئاً. ضوء النهار لا يريد أن ينتشر اليوم.

- كان يا ما كان هناك كانغرو

كان يخيّط

- هه، هل ترى شيئاً؟

- نعم، إنهم قادمون.

- أين؟ أخ، النسوان!

- كان يخيّط جرابه.

- أتعرف، إنهما اللتان كانتا هذه الليلة عند العجوز.

- اللتان جاءتا في المساء من المدينة؟

- نعم، هما.

- آه. العجوز لديه ذوق! أتعرف، تبدو الطويلة كالمكنسة العملاقة.

- لا أرى ذلك. إن منظرها على ما يرام.

- لا! أتعرف، واحدة مثل هذه

- هذه. لا. انظر إلى ساقيها فحسب. ربما أخذ القصيرة.

- لا. لقد جاءت مع الأخرى فحسب. لقد أخذ الطويلة.

- يا خبر! الساقان.

- كيف! إنهما على ما يرام.

- لا. أتعرف؟ هذه، هذه.

- لا!

- لا أفهم العجوز.

- ماذا؟ كان سكران. انظر إلى ساقيها فحسب. إنها مكنسة يا بني. لا بدّ أن العجوز كان سكران، يا خبر! ومن الأمس.

- أنا مستغني.

- وأنا أيضاً.

والتحفا ثانية بأغطيتهما. كانت ما زالت مندّاة من الليل. الراقد على الأرض خبّط بقدميه مدندناً:

كان يا ما كان هناك كانغرو

يخيّط جرابه

يخيط

يخيط ...

كانت قدماه باردتين، فخبط بقدميه مدندناً:

كان يخيط

كان يخيط ...

في المساء. ما زالت الأغطية مندّاة. من الليل. كانا يغالبان النعاس. وكان أحدهم يدقّ بقدميه مدندناً:

كان يا ما كان هناك كانغرو

كان يخيط

- أنت.

- هه؟

- اسكت!

- لماذا؟

- إنهم قادمون.

- قادمون؟

ونهض. سقطت الأغطية على الأرض.

- نعم، إنهم قادمون. إنهم يحملونه.

- نعم، ثمانية رجال.

- أنت.

- هه؟

- إن العجوز قصير جداً. أم أن السبب هو أنهم يحملونه؟

- لا، لقد قطَعَتْ رأسه بالتأكيد.

- أتعتقد أنه لذلك قصير هكذا؟

- وهل هناك سبب آخر؟

- وهل سيدفنونه هكذا؟

- كيف؟

- هكذا، من دون رأس.

- طبعاً. لقد أخذته معها بالتأكيد.

- يا إلهي، يا إلهي! يا لها من امرأة! لا بدّ أن العجوز كان سكران.

- دعه في حاله!

- طبعاً. الآن لم يعد يستفيد من ذلك شيئاً.

- فعلاً.

- والتحفا مرّة أخرى بالأغطية.

- أنت.

- نعم؟

- هل تعتقد أنها كانت فتاة حقيقية؟

- بسبب الرأس؟

- آه.

- لا. فتاة حقيقية؟ لا.

- إذاً فهي لم تأخذه معها.

- يا رجل.

- هل فعلت ذلك فقط من أجل المدينة؟

- وهل هناك سبب آخر؟

- يا إلهي، يا إلهي! هكذا تقطع رأسه.

- أريد أن أنسى الأمر.

- وأنا أيضاً، أتعرف، وأنا أيضاً.

ثم راح يخبط بقدميه ويدندن:

كان يا ما كان هناك كانغرو

كان يخيّط جرابه

يخيّط جرابه

يخيّط جرابه...

عندما سارت الفتاتان في المدينة، صرخ الجميع. الطويلة كانت تحمل رأساً. بقع داكنة على فستانها. كانت تعرض الرأس.

صرخوا كلهم: يوديت!

رفعت فستانها وعلّقت طرفه في صدرها صانعةً منه جراباً.

وفيه رقد الرأس. كانت تعرضه.

يوديت!

صرخوا كلّهم: يوديت، يوديت!

كانت تحمل الرأس في فستانها. كانت تبدو مثل كانغرو.

كرات «البولينغ»

حفر رجلان حفرة في الأرض. كانت متّسعة جداً، وكادت تكون مريحة. كالقبر. كانت محتملة.

كانت أمامهما بندقيّة. لقد اخترعها شخصٌ ما لإطلاق الرصاص على الناس. أناسٌ ليس بينه وبينهم في الغالب أدنى معرفة، بل لم يكن يفهم حرفاً من لغتهم. لم يفعلوا له أيّ شيء. ولكن لا بدّ أن يطلق عليهم الرصاص. إنسان ما أصدر الأمر بذلك. ولكي يستطيع قتل أكبر عددٍ من الناس، اخترع إنسانٌ بندقيةً تطلق أكثر من ستّين طلقة في الدقيقة. وعلى عمله كوفئ.

بعيداً عن الرجلين بمسافة توجد حفرة أخرى. أطلّ منها رأس إنسان. كان له أنفٌ يستطيع شمّ العطر. له عينان بإمكانهما رؤية مدينة أو زهرة. له فمٌ يستطيع أكل الخبز والنطق باسم «إنغه» أو ماما. هذا الرأس رآه كلا الرجلين اللذين تسلّما بندقية. قال أحدهما:

- صوِّب!

وصوَّب. وطار الرأس. لم يعد يستطيع شمّ العطر، ولا رؤية المدينة، ولا النطق بـ«إنغه»، إلى الأبد.

منذ شهور طويلة والرجلان في الحفرة. أطارا رؤوساً لا تُحصى،

رؤوساً لأناسٍ ليست بينهما وبينهم أدنى معرفة. لم يفعلوا لهما أيّ شيء، بل لم يفهما حرفاً من لغتهم. ولكن إنساناً اخترع بندقية تطلق أكثر من ستّين طلقة في الدقيقة، وإنساناً أصدر الأمر.

بمرور الوقت أطارا رؤوساً لا تُحصى، لو وضعت بعضها فوق بعض لكوّنت جبلاً ضخماً. عندما يستغرق الرجلان في النوم، تبدأ الرؤوس في التدحرج. كأنها كرات في نادي البولينغ، محدِثةً قعقعةً خافتة. بسبب هذا الصوت استيقظا. همس أحدهما:

- ولكن إنساناً أصدر الأمر بذلك.

فصرخ الآخر:

- لكننا نفّذنا نحن.

فتأوّه الأول قائلاً:

- كان الأمر مخيفاً.

فضحك الثاني:

- لكنه كان في بعض الأحيان مصدر تسلية.

فصاح الهامس:

- لا.

فهمس الآخر:

- بلى. كان الأمر مصدر تسلية أحياناً. نعم. تسلية ما بعدها تسلية.

وجلسا ساعات في الليل. لم يناما. ثم قال الأول:

- لكنّ الله خلقنا هكذا.

- ولكن الله له عذر، فهو ليس موجوداً.

- ليس موجوداً؟

- هذا هو عذره الوحيد.

فهمس الأول:

- ولكن نحن، نحن موجودان.

في الليل، لم ينم الرجلان اللذان أُمرا بأن يسقطا أكبر عدد من الرؤوس، فالرؤوس تُحدث قعقعة خافتة. عندئذٍ قال أحدهما:

- علينا أن نستعدّ الآن.

- نعم، علينا أن نستعدّ الآن.

عندئذٍ صاح صوت:

- استعداد! هجوم جديد!

نهض الرجلان وتناولا البندقيّتين.

إذا شاهدا إنساناً، يطلقان عليه الرصاص دائماً.

ودائماً هو شخص لا يعرفانه على الإطلاق. ولم يفعل لهما أيّ شيء. بالرغم من ذلك فإنهما يطلقان عليه النار. لقد اخترع إنسانٌ ما البندقية من أجل هذا. وعلى عمله كوفئ. وإنسان، إنسان ما أصدر الأمر.

في هذا الثلاثاء

في الأسبوع ثلاثاء واحد.

وفي العام خمسون.

وفي الحرب أيام ثلاثاء عديدة.

في هذا الثلاثاء

كانوا يتدرّبون في المدرسة على كتابة الحروف الكبيرة. ترتدي المعلّمة نظّارة ذات عدساتٍ سميكة وبلا إطار. بدت عيناها واهنتين للغاية بسبب سُمك العدسات.

اثنتان وأربعون فتاة يجلسن أمام السبورة السوداء ويكتبن بحروف كبيرة:

لدى فريتس العجوز كأسٌ معدنية.

تصل طلقات مدفع برتا الضخم إلى باريس.

كلّ الآباء في الحرب جنود.

كانت «أولّه» ترفع طرف لسانها حتى يصل إلى أنفها، عندئذٍ خبطتها المعلمة:

- لقد كتبت الحرب بالخاء يا «أولّه». الحرب تُكتب بالحاء. ح مثل حفرة. كم مرّة ذكرت لك ذلك؟

وتناولت المعلمة دفتراً وخطّت علامة بعد اسم أولّه.

- واجب اليوم أن تكتبي الجملة عشر مرات، بخطٍّ واضح، مفهوم؟

قالت «أولّه» في نفسها: «أمّ نظّارة هذه...»، ثم غمغمت:

- مفهوم.

في فناء المدرسة التهمت الغربان الخبز المُلقى.

في هذا الثلاثاء

تلقّى الملازم «إلرز» الأوامر في رئاسة الكتيبة.

- عليك أن تخلع الكوفية الحمراء يا سيد إلرز!

- سيدي الرائد؟

- لا بدّ يا إلرز، ليس هذا بالأمر المستحبّ في الثانية.

- وهل سأُنقل إلى الفصيلة الثانية؟

- نعم، وهم لا يحبّون مثل هذه الأشياء. لن تستطيع أن تسلك سلوكك هذا هناك. اعتاد المرء ألا يفعل إلا الصواب في الثانية. بهذه الكوفية الحمراء لن يطيعك أحد. النقيب هسّه لم يكن يرتدي شيئاً مثل هذا.

- وهل أُصيب؟

- لا، بل أبلغهم مرضه. قال إنه يشعر بوعكة. لقد فترت هِمّته منذ أن رُقِّي نقيباً. لا أفهم هذا الـ«هسّه». كان سلوكه دائماً صحيحاً. هه، على أي حال يا إلرز، هيِّئ نفسك لتولّي قيادة الفصيلة. لقد أجاد هسّه تربية جنوده. واخلع الكوفية، مفهوم؟

- طبعاً يا أفندم!

- وعليك تنبيه المدخّنين بأن يحترسوا، فإذا رأى أيُّ قنّاصٍ ماهر هذه الديدان المتوهّجة تملأ الساحة فلا بدّ أن تأكله أصابعه ويضغط على الزناد. في الأسبوع الماضي أُصيب خمسة في رؤوسهم. عليك بالاحتراس أكثر إذاً، مفهوم؟

- مفهوم يا أفندم!

في طريقه إلى الفصيلة الثانية خلع الملازم إلرز الكوفية الحمراء، وأشعل سيجارة. ثم صاح:

- قائد الفصيلة إلرز.

عندئذٍ انطلقت رصاصة.

في هذا الثلاثاء

قال السيد «هانزن» للآنسة «سفرين»:

- لا بدّ أن نبعث بشيءٍ آخر إلى هسّه يا عزيزتي سفرين! بعض السجائر، بعض المخبوزات، كتاباً في الأدب، قفازاً، أو شيئاً من هذا القبيل. إنهم يقضون شتاءً لعيناً على الجبهة.

- أعرف ذلك، وأشكرك. ما رأيك في هُلدرلين يا سيد هانزن؟

- لا، لا، يا عزيزتي سفرين. لا، شيئاً أكثر لطفاً. فيلهلم بوش أو ما شابه. كان هسّه أكثر ميلاً للأدب السهل. إنه يحبّ الضحك، تعرفين ذلك بالطبع. يا إلهي! هل يستطيع هسّه أن يضحك؟

فقالت سفرين:

- نعم، يستطيع.

في هذا الثلاثاء
نقلوا النقيب هسّه على محفّة إلى المستشفى. على الباب لافتة تقول:

شَعرك سيبقى هنا
جنديّاً كنت أو لواء

وحلقوا له رأسه تماماً. كان للممرّض أصابع طويلة نحيلة، كسيقان العنكبوت. علت الأصابع حمرة خفيفة عند المفاصل. دعك الممرض رأس هسّه بشيء تفوح منه رائحة الدواء. ثم تحسّست سيقان العنكبوت النبض، وكتبت في دفتر ضخم: الحرارة: 41،6، النبض 116، فاقد الوعي. اشتباه في حمّى تيفودية. وأغلق الممرض الدفتر الضخم. كان مكتوباً على غلافه: مستشفى سمولِنسك الحربي للأمراض الوبائية. وفي أسفل الغلاف: أربعمئة سرير.

ثم رفعوا المحفّة. على السلّم برز رأسه من تحت الأغطية. على الدرج، وعند كل درجة، كان رأسه يتأرجح كالبندول يميناً ويساراً. الرأس الحليق. كان صاحبه دائم السخرية من الجنود الروس. وكان أحد الذين حملوه مزكوم الأنف.

في هذا الثلاثاء

رنّت السيدة هسّه جرسَ جارتها. وعندما فُتح الباب لوّحت لها بالرسالة. لقد رُقّي إلى رتبة نقيب. نقيب وقائد فصيلة، هكذا قال في رسالته. بلغت درجة البرودة عندهم 40 درجة تحت الصفر. استغرقت الرسالة تسعة أيام. كتبَ أعلى المظروف: زوجة النقيب هسّه. وظلت ترفع الرسالة، لكن الجارة لم تكن تتطلع إليها، بل غمغمت قائلة: 40 درجة تحت الصفر. مساكين. 40 تحت الصفر.

في هذا الثلاثاء

سأل كبير أطباء الجبهة رئيسَ الأطباء في مستشفى سمولِنسك الحربي للأمراض الوبائية:

- كم يبلغ عددهم كلّ يوم؟

- نصف دستة.

فقال كبير أطباء الجبهة: شيء بشع.

فأمّن طبيب المستشفى على كلامه: نعم، شيء بشع.

خلال الحديث لم يستطع أيٌّ منهما النظر في وجه الآخر.

في هذا الثلاثاء

كانوا يعزفون «الناي السحري». تزيّنت السيدة هسّه، ووضعت أحمر شفاه.

في هذا الثلاثاء

كتبت الممرضة إليزابيت إلى والديها: لولا الإيمان بالله ما كنا تحمّلنا ذلك. ثم دخل الطبيب المعالج فنهضت واقفة. كان الطبيب يسير محنيَّ الظهر وكأنه يحمل روسيا كلّها إلى داخل القاعة. تساءلت الممرضة: هل أعطيه شيئاً آخر؟

لا. قالها بصوت خافت تماماً وكأنه يخجل من ذاته. عندئذٍ حملوا النقيب هسّه إلى الخارج. علت ضجّة في الخارج. يلقون بهم دائماً في ضجيج. قال أحدهم: لماذا لا يضعون الموتى بهدوء؟ في كلّ مرّة يلقون بهم هكذا على الأرض. هذا ما قاله أحدهم، بينما كان جاره يدندن:

العنزة نبتت لها أسنان

والبحرية جنود شجعان

تنقّل الطبيب المعالج من سريرٍ إلى آخر. كل يوم. صباح مساء. طوال اليوم. وخلال الليالي. يسير منحنياً. إنه يحمل روسيا كلّها إلى القاعة. في الخارج تعثّر اثنان من حاملي المرضى بمحفّة خالية. إنه رقم 4، قال أحدهما. كان مزكوماً.

في هذا الثلاثاء

جلست أولّه في المساء، وراحت ترسم الكلمات الآتية بحروفٍ كبيرة في كرّاستها:

في الحرب كلّ الآباء جنود.

في الحرب كلّ الآباء جنود.

كتبتها عشر مرات. بحروفٍ كبيرة. حرب تُكتب بحرف الحاء. مثل حفرة.

حكايات من كتاب المطالعة

لدى كلّ الناس ماكينة خياطة وراديو وثلاجة وتليفون. «ماذا نفعل إذاً؟»، تساءل صاحب المصنع.

أجاب المخترع: قنابل.

أجاب الجنرال: حرب.

فقال صاحب المصنع: «نعم، إذا لم يكن هناك مناصٌ من ذلك».

دوّن الرجل ذو المعطف الأبيض أرقاماً على الورقة، ثم أضاف بضعة حروف صغيرة رقيقة للغاية. خلع المعطف الأبيض وأخذ يعتني لمدّة ساعة بالزهور المزروعة في أحواض على حافة النافذة.

حزن حزناً شديداً حتى البكاء عندما لاحظ أن إحدى الزهور قد ذبلت. على الورقة أرقام. يستطيع المرء بنصف غرام من هذه المادة أن يقتل ألف إنسان خلال ساعتين.

سطعت الشمس على الزهور.

وعلى الورقة أيضاً.

رجلان يتبادلان الحديث:

- التكاليف؟

- بالقيشاني؟

- بالقيشاني الأخضر بالطبع.

- أربعون ألفاً.

- أربعون ألفاً؟ لا بأس. نعم يا عزيزي، لو لم أغيِّر نشاطي من الشوكولاتة إلى البارود في الوقت المناسب، لما كان في استطاعتي أن أدفع لك الأربعين ألفاً. ولا أن أكلِّفك بكسوة الحمام بالقيشاني الأخضر.

بالقيشاني الأخضر.

وافترق الرجلان.

كان أحدهما صاحب مصنع، والآخر مقاولاً.

وكانت حرب.

ساحة لعب «البولينغ». رجلان يتبادلان الحديث:

- ما الخبر أيها المعلّم، ترتدي بدلة داكنة اللون. حالة وفاة؟

- كلا، إطلاقاً، بل حفل. الشبّان ذاهبون إلى الجبهة. ألقيت خطبة قصيرة. ذكّرتُهم بمدينة «إسبرطة» وبعض مقولات كلاوزفيتس، وشرحت لهم بعض المفاهيم عن الشرف والوطن، وأوصيتهم بقراءة أشعار هُلدرلين. رحت أفكّر في منطقة الحدود الممتدّة. حفل مؤثٍّر. مؤثّر للغاية. أخذ الشبّان يغنّون: «الله الذي جعل الحديد يتمدّد». كانت العيون تلمع. مؤثّر. مؤثّر للغاية.

- يا إلهي، لا تكمل أيها المعلّم. هذا فظيع!

وأخذ المعلّم يحملق في الآخرين وقد تملّكه الفزع. في أثناء حديثه رسم عدداً من الصلبان الصغيرة على الورق، صلباناً صغيرة كثيرة. نهض وضحك. ثم أخذ كرة جديدة وأطلقها تجري فوق المسار. أحدثت ضوضاءً خافتة، ثم انقلبت القوائم الخشبية في الخلف. كانت تبدو كرجالٍ قصار القامة.

رجلان يتحدثان:

- هه، كيف الحال؟

- سيِّئ بعض الشيء.

- كم يتبقّى لديك؟

- إذا سارت الأمور على ما يرام: أربعة آلاف.

- وما العدد الذي تستطيع أن تعطيني إياه؟

- ثمانمئة على أكثر تقدير.

- لا يكفي.

- إذاً، ألف.

- شكراً.

وافترق الرجلان.

كانا يتحدّثان عن بشر.

كانا برتبة جنرال.

وكانت حرب.

رجلان يتبادلان الحديث:

- بمحض إرادتك؟

- طبعاً.

- عمرك؟

- 18 سنة. وأنت؟

- وأنا أيضاً.

وافترق الرجلان.

كانا جنديين في الجيش.

ثم سقط أحدهما. خرَّ صريعاً.

وكانت حرب.

عندما انتهت الحرب رجع الجندي إلى وطنه. لم يكن لديه خبز. رأى شخصاً لديه خبز، فقتله.

قال له القاضي: ألا تعلم أن القتل حرام؟

فسأله الجندي: من قال هذا؟

عندما انتهى مؤتمر السلام تجوّل الوزراء في المدينة، ثم مرّوا بكشك رماية. صاحت الفتيات ذوات الشفاه الحمراء: جرّب حظّك في التسديد يا سيّد! فأخذ الوزراء جميعهم بنادق وصوّبوا على أشكال آدمية صغيرة من الورق المقوّى.

خلال التصويب أتت سيدة عجوز وأخذت البنادق منهم جميعاً.

عندما أراد وزير استعادة بندقيته صفعته العجوز.

كانت أمّاً.

كان يا ما كان، كان اثنان من الناس. عندما بلغا الثانية من عمرهما كانا يتلاكمان بالأيدي.

عندما بلغا الثانية عشرة كانا يتضاربان بالعصي ويتقاذفان بالحجارة.

عندما بلغا الثانية والعشرين كانا يتبادلان إطلاق النار.

عندما بلغا الثانية والأربعين كانا يتبادلان رمي القنابل.

عندما بلغا الثانية والستين أصابتهما البكتريا.

عندما بلغا الثانية والثمانين ماتا ودُفنا متجاورين.

وبعد مرور مئة عام لم تلحظ الدودة التي كانت ترعى في قبرهما أنها تتغذّى على رفات شخصين مختلفين.

كانت التربة نفسها. التربة عينها.

في عام 5000 خرج خُلد من تربة الأرض ناظراً حوله. انتابه شعورٌ بالراحة عندما لاحظ الآتي:

الأشجار ما زالت أشجاراً.

الغربان ما زالت تنعق.

الكلاب ما زالت ترفع قوائمها.

الأسماك والنجوم،

الطحالب والبحر والناموس:

كلٌّ بقي على حاله.

وأحياناً –

أحياناً يُرى إنسان.

لعلّها ترتدي قميص نومٍ ورديّاً

جلسا على درابزين الجسر. سروال كلٍّ منهما كان خفيفاً، ودرابزين الجسر ثلجياً. غير أن المرء يعتاد ذلك. مثلما يعتاد شعوره بالضيق. جلسا هناك. كانت تمطر، لا تمطر، تمطر. جلسا وراحا يستعرضان المارّة. ولأنهما طيلة الحرب لم يريا سوى رجال، فلم يريا الآن سوى البنات.

واحدة مرّت.

«صدرها كبير وجميل جداً. يمكن للرجل أن يشرب عليه القهوة!»، قال تيم.

«وإذا سارت طويلاً في الشمس فسيحمض الحليب»، قال الآخر مبتسماً.

ثم مرّت واحدة أخرى.

«من العصر الحجري»، قال الجالس بجانب تيم مستسلماً.

«شبكات العنكبوت تعشِّش في كلّ مكانٍ من جسمها»، قال الآخر.

عندئذٍ مرّ الرجال. مرّوا من دون تعليق؛ صبيان يتعلّمون الحدادة، موظفون في المكاتب ببشرة بيضاء، مدرّسون في المدارس الليلية بوجوهٍ عبقريّة وسراويلَ رثّة، بُدناء بسيقانٍ بدينة، مرضى بالربو وعاملون في الترام يمشون مشيةً عسكرية.

ثم جاءت هي. كانت مختلفة تماماً. لا بدّ أن شذا الخوخ يفوح منها، هذا هو شعور المرء. أو رائحة البشرة النظيفة تماماً. وبالتأكيد فإن اسمها فريدٌ تماماً: إيفيلين أو ما يشبه ذلك. ومرّت. تتبَّعها كلاهما ببصره.

«لديها ربما قميص نوم وردي»، قال تيم.

«لماذا؟»، تساءل الآخر.

فأجاب تيم: «فتاة مثل هذه ترتدي غالباً قميصاً وردياً».

«يا للسخافة!»، قال الآخر، «من الممكن أيضاً أن يكون أزرق».

«لا يمكن، لا يمكن. مثل هذه ترتدي الوردي. أعلم ذلك تماماً يا عزيزي!». علا صوت تيم جدّاً عندما قال ذلك.

عندئذٍ قال الجالس بجانبه: «أنت تعرف واحدة، أليس كذلك؟».

لم يردّ تيم. جلسا فوق درابزين الجسر، وشعرا بالبرودة الثلجية عبر السروال. عندئذٍ قال تيم:

«لا، أنا لا. ولكني أعرف واحداً كانت لديه امرأة بقميصورديّ. في الجيش. في روسيا. في محفظته كان يحتفظ دوماً بقطعة من شيء وردي. ولكنه لم يُظهرها أبداً. غير أنها سقطت ذات يوم على الأرض. ورآها الجميع. غير أنه لم يقل حرفاً. نهض وركض ليلتقطها. كانت وردية تماماً. وفي المساء حكى لي أنه حصل عليها من عروسه، كتعويذة، فاهم؟! إذ إن لديها قمصاناً وردية لا تحصى، قال لي. ومن أحدها هذه القطعة».

توقف تيم.

«ثم؟» – سأله الآخر.

عندئذٍ قال تيم بصوت خافت تماماً: «لقد أخذتها منه. ثم رفعتها. وضحكنا جميعاً. على الأقل طوال نصف ساعة ونحن نضحك. ويمكنك أن تتخيّل ما قلناه».

«وماذا حدث؟» – تساءل الجالس بجوار تيم.

حدّق تيم في ركبته. «انتزعها»، قال.

ثم تطلّع تيم إلى الآخر وقال: «نعم، انتزعها مني، ثم أُصيب. في اليوم التالي أُصيب».

ران الصمت على كليهما. ظلّا يجلسان من دون أن ينطقا بكلمة. ثم قال الآخر: كلام فارغ. ثم كرّرها مرة أخرى: كلام فارغ.

نعم، أعرف، قال تيم. إنه بالطبع كلام فارغ. هذا شيء لا شك فيه. أعرف ذلك أنا أيضاً. ثم أضاف: ولكنه غريب، أتعرف؟ الأمر غريب.

وضحك تيم. وضحك كلاهما. ثم أدخل تيم قبضته في جيب سرواله ضاغطاً على شيء. قطعة صغيرة من القماش الوردي. لم يبقَ من اللون الوردي الكثير، إذ إن القطعة كانت في جيبه منذ وقت طويل. ولكنها ما زالت وردية. لقد أحضرها من روسيا.

شدو البلبل

وقفنا في الليل بثياب النوم حُفاة الأقدام وهو يشدو. السيد هينش مريض. مصاب بالسعال. أتلف الشتاء رئته، لأنه لم يُحكم إغلاق النافذة. سيموت السيد هينش حتماً. السماء تمطر في بعض الأحيان. إنه الليلك. تتساقط زهور الليلك البنفسجية من الأغصان ويفوح منها شذى يشبه رائحة البنات. السيد هينش وحده هو الذي لم يعُد يستطيع الشمّ. إنه مصاب بالسعال. البلبل يشدو. والسيد هينش سيموت حتماً. وقفنا بثياب النوم حفاة الأقدام مُصغين إليه. السعال يملأ المنزل بأكمله. أما شدو البلبل فيملأ الدنيا كلّها. والسيد هينش لن يستطيع أن يطرد الشتاء من رئته. الليلك البنفسجي يتساقط من الأغصان. البلبل يشدو. سيموت السيد هينش ميتةً صيفية هانئة في غمرة الليل وشدو البلابل ومطر الليلك البنفسجي.

لم ينعم تيم بمثل هذه الميتة الصيفية. مات تيم ميتة الشتاء الثلجي الموحش. عندما حللت محلّ تيم، لاحظت الشحوب الشديد الذي علا وجهه وهو راقد على الثلوج. كان الشحوب يعلوه. ليس بسبب القمر، إذ لم يكن له وجود. كان تيم كقطعة طمي في الليل. شحوبه كان كالطَّمي البارد الرطب الذي يملأ حفر شوارع حيِّنا في الوطن. في الحفر كنّا نلهو،

ونصنع رجالاً من الطمي. لكن لم يَرِد على خاطري يوماً أن يكون تيم مصنوعاً من الطمي أيضاً.

لم يكن تيم يريد أن يأخذ الخوذة معه، عندما ذهب إلى نقطة الحراسة. قال لنا:

- أحبّ أن أشعر بالليل.

فقال الشاويش:

- لا بدّ أن تأخذ الخوذة معك. من الممكن دائماً أن يحدث شيء. عندئذٍ سيتّهمونني بالغباء. سأكون أنا الغبيّ.

فحدّق تيم في الشاويش. حدّق فيه، ومن خلاله نظر إلى الدنيا بأسرها. ثم ألقى تيم واحدةً من خُطَبه العالميّة:

- الأغبياء هم نحن على كلّ حال.

قال ذلك وهو واقف على الباب، ثم استطرد قائلاً:

- نحن الأغبياء على كلّ حال، كلّ الرجال أغبياء. لدينا الخمر وموسيقا الجاز، والخوذات المصفّحة، والفتيات، والمنازل، وسور الصين، والمصابيح - كلّ هذا نملكه بسبب الخوف. نملكه لنقاوم الخوف. لكنّنا نظلّ أغبياء دائماً. يلتقطون لنا الصور بدافع الخوف، وننجب الأطفال بدافع الخوف. وبدافع الخوف نرتمي في أحضان الفتيات، الفتيات دائماً. إننا نضع الفتيل في الزيت بدافع الخوف، ونتركه يحترق. إلا أننا نظلّ الأغبياء. نفعل كلّ هذا بدافع الخوف، ولنقاومَ الخوف. لا نرتدي الخوذات إلاّ بدافع الخوف. ولكن كلّ هذا لا يُجدي نفعاً، خاصّةً عندما ننسى أنفسنا أمام قميصٍ حريري أو أنين بلبل. عندئذٍ يتقدّم الخوف للقبض علينا. عندئذٍ يسعل في مكانٍ ما. لن تُجدي معنا خوذةٌ إذا قُبض علينا. لن يُجدينا حينئذٍ منزلٌ أو فتاة أو خمر أو خوذة.

كانت هذه واحدة من كبريات خطب تيم، تلك الخطب العالمية التي كان يلقيها. يلقيها للعالم كلّه، في حين أننا لم نكن سوى سبعة رجال في خندق. وغالبيّتهم كانوا يستغرقون في النوم خلال إلقاء تيم خطبه العالمية. ثم يذهب إلى نقطة الحراسة - تيم الخطيب العالمي. أما الآخرون فيعلو شخيرهم. ترك خوذته في مكانها، فكرّر الشاويش عبارته:

- سأكون أنا الغبيّ، سيتّهمونني بالغباء إذا حدث شيء.

قال ذلك ثم استغرق في النوم.

عندما حللت محلّ تيم، كان وجهه الراقد على الثلوج شاحباً شحوباً شديداً. شحوب الطمي الذي يملأ الحفر في شوارع الضاحية التي كنّا نسكن فيها. كانت الثلوج ناصعةً كريهة. قلت لنفسي: لم يرِد على خاطري يوماً أن تصبح أنت أيضاً يا تيم مصنوعاً من الطمي. خُطبك العظيمة موجزة، إلا أنها تبلغ أطراف الأرض كلّها. ما تقوله يجعل الإنسان ينسى الطمي تماماً. خطبك عظيمة دائماً يا تيم. إنها بحقّ خطبٌ عالميّة.

لكنّ تيم لم ينطق. وجهه الشاحب كان يبدو عليلاً في الثلج الليلي الأبيض. كان الثلج باهتاً مقيتاً. اعتقدت أن تيم نائم. مَن كان بمقدوره أن يتحدّث بمثل هذه العظمة عن الخوف، يستطِع بالتأكيد أن ينام هنا، حيث جنود روسيا يملؤون الغابة. كان تيم واقفاً في الحفرة الجليدية ووجهه الشاحب فوق البندقية. قلت له: انهض يا تيم! لكن تيم لم ينهض. بدا وجهه الشاحب غريباً وسط الثلوج، فخبطته بالحذاء العسكري على مؤخرته. كانت الثلوج عالقة بالحذاء. وظلّت عالقة بمؤخرته. ترك الحذاء أثراً غائراً على مؤخرته. وبقي الأثر الغائر. عندئذٍ لاحظت أن يده تلتفّ على البندقية. ما زالت السبّابة مقوّسة. وقفتُ ساعةً وسط الثلوج. وقفتُ ساعةً عند تيم. عندئذٍ قلتُ لتيم الميّت:

- أنت على حقٍّ يا تيم. كلّ شيء لا يجدي نفعاً. لا الفتاة، ولا الصليب، ولا البلبل يا تيم، بل ولا حتى الليلك المتساقط يا تيم. حتى السيد هينش، الذي يسمع شدو البلبل وما زال يشمّ عبير الليلك، لا بدّ أن يموت. البلبل يشدو. وهو يشدو لنفسه فحسب. والسيد هينش، إنه يموت لنفسه فحسب. البلبل لا يعنيه الأمر في شيء، إنه يشدو. (هل من الممكن أن يكون البلبل مصنوعاً من الطمي فحسب؟ مثلك يا تيم؟).

القطّة ماتت برداً

سار رجالٌ في الشارع ليلاً. كانوا يدندنون. تركوا وراءهم بقعةً حمراء في الليل، بقعةً قبيحة حمراء. البقعة كانت قرية. والقرية تشتعل. أشعل الرجال فيها النار. الرجال كانوا جنوداً. والحرب مستعِرة. صرخت الثلوج تحت أحذيتهم المزوّدة بالمسامير. صرخت بصوتٍ قبيح، الثلوج. التفّ الناس حول بيوتهم التي ترعى فيها النار. وضعوا تحت آباطِهم الأوانيَ والأطفال والأغطية. تصاعد صراخ القطط من الثلوج الدامية. احمرّت الثلوج بفعل النيران. ثم صمتت. إذ إن الناس وقفوا خُرساً حول البيوت التي أخذت تتنهّد وهي تئزّ تحت النيران. لذلك لم تصرخ الثلوج. أحضر بعضهم صوراً خشبية، صوراً صغيرة ذات ألوان ذهبية وفضّية وزرقاء. برز من الصور رجلٌ ذو وجهٍ بيضاوي ولحية بنّية. سدّد الناس نظراتٍ ضارية في عيني الرجل الوسيم وسامةً فائقة. لكن البيوت - إنها تحترق، وتحترق، وتحترق.

بالقرب من هذه القرية كانت هناك قريةٌ أخرى. وقف الناس عند النوافذ في تلك الليلة. في بعض الأحيان يتحوّل لون الثلوج التي انعكس عليها ضوء القمر إلى ما يشبه اللون الورديّ، بسبب النيران المشتعلة على الجانب الآخر. تبادل الناس النظرات. الحيوانات تنطح جدران الحظيرة. والناس، الناس قد تصدر عنهم إيماءاتٌ في الظلام.

وقف رجال صُلع بجانب المائدة. وضع أحدهم منذ ساعتين خطّاً بقلمٍ أحمر، على خريطة. على هذه الخريطة كانت هناك نقطة. النقطة كانت قرية. ثم تحدّث في التليفون. عندئذٍ أزال الجنود بقعةً في الليل: القرية المشتعلة دماً، بكلٍّ ما فيها من قطط تصرخ برداً وسط الثلوج الوردية. انسابت الموسيقا الخافتة مرّة أخرى بجانب الصُّلع. تغنّت فتاةٌ بأغنيةٍ ما. يختلط ذلك بصوت الرعد أحياناً، الرعد الآتي من بعيد.

يسير الرجال مساءً في الشارع. يدندنون. يشمّون عبير أشجار الكمّثرى. لم تكن ثمّة حرب. والرجال لم يكونوا جنوداً. ولكنهم رأوا عندئذٍ في السماء بقعةً حمراء بلون الدم. توقّف الرجال عن الدندنة. قال أحدهم: انظر، الشمس! ثم واصلوا سيرهم. لم يعاودوا الدندنة. فالثلوج الوردية تصرخ أسفل الكمّثرى الناضجة. لم يتخلّصوا أبداً من أسْر الثلوج الوردية.

في قريةٍ صغيرة كان الأطفال يلعبون بخشبةٍ متفحّمة. ثم، ثم رأوا قطعةً بيضاء من الخشب. كانت عظمة. أخذ الأطفال يدقّون بالعظمة على جدار الحظيرة. الصوت الصادر يشبه دقّ الطبول: توك، توك، توك. الصوت الصادر يشبه دقَّ الطبول. استمتع الأطفال باللهو في الضوء الغامر اللطيف.

كانت العظمة إحدى عظام... قطّة.

أخي الشاحب

لا شيء في بياض هذا الثلج، أبداً. من فرط بياضه كاد يميل إلى اللون الأزرق، الأزرق المخضرّ. بياض فظيع. أمام هذا الثلج لم تجرؤ الشمس على نشر أشعّتها الصفراء إلا بصعوبة. لم يكن صباح يوم أحدٍ بمثل هذه النقاء كهذا الصباح. ولكن في الخلفية، وهناك فقط، برزت الغابة الزرقاء الداكنة. لكن الثلج كان جديداً ونقيّاً مثل عين حيوان. ليس هناك ثلج. كان يوماً في بياض هذا الثلج في صباح يوم الأحد هذا. لم يكن صباحُ أحدٍ بمثل هذه النقاء يوماً. العالم، هذا العالم الثلجي في يوم الأحد، كان يضحك.

رغم ذلك، كانت ثمّة بقعة في مكانٍ ما. البقعة كانت إنساناً يرقد وسط الثلوج على بطنه، منكمشاً على نفسه، مرتدياً الزيّ العسكريّ. كومة رثّة. كومة رثّة من الجلد والعظم والقماش. تناثرت عليها دماء جافّة داكنة الاحمرار. شعره ميت تماماً، كأنه شعر مستعار. منكمشاً على نفسه، صارخاً صرخته الأخيرة وسط الثلوج، نابحاً، أو مصلّياً ربما. جنديّ. بقعة وسط البياض الثلجي الذي لم تره عينٌ من قبل، في صباح يوم أحد هو الأكثر نقاء. لوحة حربية مؤثّرة، غنيّة بالتفاصيل. إغواء للألوان المائية: دماء وثلوج وشمس. الدماء الدافئة تختلط بالثلج البارد، البارد، فيتصاعد بخار. وفوق كلّ شيء الشمس الحبيبة. شمسنا الحبيبة. كلّ أطفال العالم

يقولون: الشمس الحبيبة، الحبيبة. وهي تسطع فوق الميت الذي يصرخ صرخةً مُريعة وسط صرخات كلّ الدُّمى الميّتة: الصرخة الصامتة، الفظيعة، الصامتة! مَن منّا - انهض يا أخي الشاحب - آهٍ! من منّا يستطيع أن يتحمّل الصرخة الصامتة التي تلفظها الدُّمى عندما تنقطع أسلاكها وتسقط وقد التوَت وتشوّهت على خشبة المسرح؟ من، آه، من منّا يتحمّل صرخة الأموات الصامتة؟ لا يتحمّلها سوى الثلج، الثلج الجليديّ. والشمس، شمسنا الحبيبة.

أمام الدمية التي انقطعت حبالها كانت هناك أخرى سليمة. ما زالت تتحرك. أمام الجندي الميت وقف آخر حيّ. في صباح يوم الأحد النقيّ هذا، في الثلج الذي لم ترَ عينٌ بياضاً مثله، ألقى الواقف على الراقد الخطاب التالي الصامت صمتاً مرعباً:

نعم. نعم نعم. نعم نعم نعم. ضاع الآن مزاجك الرائق، يا عزيزي! مزاجك الرائق دائماً. لم تعد الآن تقول شيئاً، أليس كذلك؟ لم تعد تضحك، أليس كذلك؟ لو تعرف نساؤك حالتك البائسة الآن، يا عزيزي! تبدو بائساً للغاية من دون مزاجك الرائق. وفي هذا الوضع السخيف. لماذا ضممت ساقيك إلى بطنك بخوفٍ هكذا؟ آه، لقد أصابتك رصاصة في الأمعاء. لطّخت نفسك بالدماء. منظرك مقزِّز، يا عزيزي. لقد بقّعت الزيَّ كلّه بالدماء، كبقع حبرٍ أسود. حسنٌ أن نساءك لا يرين هذا المنظر. كنت دائماً تتباهى بزيِّك، الزيّ المحبوك على وسطك. عندما رُقِّيت إلى رتبة عريف لم تكن تسير بحذائك العسكري إلا بعد تلميعه. لساعاتٍ كنت تدهنه قبل أن تذهب في المساء إلى المدينة. ولكنك لن تذهب إلى المدينة بعد اليوم. نساؤك يتركن الآخرين الآن... لأنك لن تخرج بعد اليوم، أتفهم؟ لن تخرج بعد اليوم أبداً يا عزيزي. لقد توقفت عن الضحك

بمزاجك الرائق دائماً. ترقد الآن هنا، وكأنك لا تستطيع العدّ حتى ثلاثة. أنت فعلاً لا تستطيع. لم تعد تستطيع العدّ حتى ثلاثة. وضعك بائس يا عزيزي، بائس للغاية. ولكن هذا حسن، حسن جداً. لن تقول لي بعد الآن: «أخي الشاحب ذو الجفن المعلّق». لن تقول لي ذلك بعد الآن، يا عزيزي. من الآن لن تستطيع. لن تستطيع أبداً. ولن يحتفي بك الآخرون أبداً من أجل ذلك. لن يضحك الآخرون عليّ بعد اليوم عندما تقول لي: «أخي الشاحب ذو الجفن المعلّق». هذا أمر له قيمة كبيرة، أتعرف؟ هذا أمرٌ له قيمة هائلة بالنسبة لي، أؤكّد لك. لقد كانوا يعذّبونني وأنا في المدرسة. كانوا يجلسون عليّ كالقمل. لأن عيني بها هذا العيب الصغير، ولأن جفني متهدّل. ولأن بشرتي بيضاء هكذا. بيضاء كالجبن. ها هو ذا صاحبنا الشاحب يبدو متعباً كعادته، كانوا يقولون. والبنات كنّ يتساءلن ما إذا كنت قد استغرقت في النوم، إذ إن إحدى عينيّ كانت شبه مغلقة. نعسان، كنّ يقلن إنني نعسان. أودُّ أن أعرف الآن مَن منا يبدو نعسان؟ أنت أم أنا، هه؟ مَن الآن هو «أخي الشاحب ذو الجفن المعلّق»؟ هه؟ من يا عزيزي، أنا أم أنت؟ أنا؟

عندما أغلق باب المخبأ خلفه، التفّ عليه من كلّ الأركان عشرةٌ من ذوي الوجوه الرمادية. أحد هذه الوجوه كان وجه الشاويش. هل عثرت عليه أيها الملازم؟ تساءل ذو الوجه الرمادي الذي كان فظيعاً في رماديّته.

نعم، عند أشجار الصنوبر. رصاصة في البطن. هل نحضره؟

نعم، عند الصنوبر. نعم، بالطبع. يجب إحضاره. عند الصنوبر.

واختفت الوجوه الرمادية العشرة. جلس الملازم عند المدفأة المعدنية وراح ينظّف شعره من القمل. تماماً مثلما فعل بالأمس. بالأمس نظّف شعره من القمل. سمع صوتاً يقول: لا بدّ أن يذهب شخصٌ إلى الكتيبة. والأفضل أن يكون الملازم، هو شخصياً. راح يصيخ السمع بينما كان

يرتدي قميصه. طلقات رصاص. لم تصدر من قبل طلقات رصاص. وعندما فتح الباب بقوّة رأى الليل. لم يرَ ليلاً بمثل هذا السواد من قبل، قال لنفسه. ضابط الصف هيلر كان يغنّي. كان يحكي باندفاعٍ عن نسائه. ثم قال هذا الـ«هيلر» بمزاجه الرائق دوماً: أيها الملازم، لن أذهب إلى الكتيبة. أودّ بدايةً أن أطلب ضعف كمية الطعام. يمكن للمرء أن يعزف الأكسيليفون على أضلاع صدرك. يا لبؤس منظرك! هذا ما قاله هيلر. ولا بدّ أن الجميع قد ابتسموا في العتمة بشماتة. كان ينبغي أن يذهب أحدٌ إلى الكتيبة. عندئذٍ قال: إذاً، يا هيلر، عليك الذهاب لكي تبرِّد من مزاجك الرائق قليلاً. فردّ هيلر: تمام يا أفندم! هذا هو ما حدث. لم يكونوا يقولون أكثر من ذلك. ببساطة: تمام يا أفندم! ثم ذهب هيلر. ولم يعُد ثانيةً.

شدّ الملازم قميصه فوق رأسه. سمعهم يرجعون من الخارج. الآخرون. مع هيلر. لن يقول لي بعد اليوم «أخي الشاحب ذو الجفن المعلّق»، همس الملازم. لن يقول لي ذلك أبداً، من الآن فصاعداً.

بين ظفري إبهامَيه اصطاد قملة. طقّ. ماتت القملة. وعلى الجبين، كانت هناك نقطةٌ ضئيلة من الدم.

صاحبنا موتسارت الصغير

من الرابعة والنصف صباحاً حتى الثانية عشرة والنصف ليلاً. كلّ ثلاث
دقائق يمرّ الترام السريع. وفي كلّ مرّة كان صوتٌ نسائيّ يصيح عبر مكبّرات
الصوت على رصيف المحطة: «ليرتر شتراسه». يحمل الريح الصياحَ حتى
يصل إلينا. من الرابعة والنصف صباحاً حتى الثانية عشرة والنصف ليلاً.
ثمانمئة مرة: «ليرتر شتراسه». «ليرتر شتراسه».

وقف ليبيش عند الشبّاك. حتى في الصباح، في الظهر، وفي العصر
أيضاً، وفي الأمسيات التي لا تنتهي: «ليرتر شتراسه». «ليرتر شتراسه».

طيلة سبعة أشهر وهو يقف عند الشباك باحثاً عن المرأة. هناك، على
الجانب الآخر، لا بدّ أن تكون في مكانٍ ما، بساقين جميلتين ربما، بنهدين،
وشعرٍ مجعّد. يستطيع الواحد منا أن يتخيّل شكلها. وأكثر من هذا. ساعاتٍ
طويلة راح ليبيش يتطلّع إلى الناحية الأخرى حيثما كانت تغني. في عقله
كانت هناك مسبحة، وبعد كلّ حبّة كان ليبيش يصلّي قائلاً: «ليرتر شتراسه».
«ليرتر شتراسه». من الرابعة والنصف صباحاً حتى الثانية عشرة والنصف
ليلاً. حتى في الصباح. في الظهر. وفي العصر أيضاً. وفي الأمسيات التي
لا تنتهي: «ليرتر شتراسه». «ليرتر شتراسه». ثمانمئة مرة في اليوم. طيلة
سبعة أشهر كان ليبيش يقف عند الشبّاك باحثاً عن المرأة. فالمرء يستطيع

أن يتخيّل شكلها. بساقين جميلتين ربما. بركبتين. بنهدين. وشعر كثير. طويل، طويل طولاً لا نهاية له، مثل الليالي التي لا نهاية لها. راح ليبيش ينظر تجاهها. أم أنه كان ينظر تجاه برسلاو؟ ولكن برسلاو على بعد عدّة مئات من الكيلومترات. ليبيش من برسلاو. هل كان ينظر في المساء تجاه برسلاو؟ أم أنه كان يتعبّد إلى تلك المرأة؟ «ليرتر شتراسه». «ليرتر شتراسه». وكأنه يمرّ بأصابعه على مِسبحة لا نهاية لها. بساقين جميلتين للغاية. «ليرتر شتراسه». ثمانمئة مرّة. بنهدين. منذ الصباح. وبشَعرٍ مسائيّ طويل طولاً لا نهاية له، لا نهاية له. من «ليرتر شتراسه» إلى برسلاو. إلى الحلم. إلى برسلاو. إلى برس -- برسلاور شتراسه -- برسلاور شتراسه -- نهاية الخط -- نهاية الخط -- نهاية الخط -- نهاية -- نهاية -- نهاية -- نهاية -- برس -- لاو -

غير أن باولينه كان يجلس مقوّس الظهر على كرسيٍّ قصير نافخاً البخار تجاه أظافر أصابعه. ثم يلمّعها بمسحها في سرواله. يفعل ذلك دائماً، طيلة شهور. كانت الأظافر وردية جميلة ولامعة. باولينه مثليّ الجنس. كان ممرّضاً على الجبهة. كان يتحرّش بالجرحى. كان يقول لنا إنه كان يقدّم لهم البودينغ فحسب. لا شيء غير البودينغ. ولهذا سُجن عامين. كان اسمه باول. بالنسبة لنا كان بالطبع باولينه. بالطبع. وشيئاً فشيئاً لم يعد يعترض هو أيضاً على التسمية. عندما رجع من جلسة المحاكمة راح يشتكي لنا بلهجة برلينية: «كلّ ما ادّخرته! كلّ ما ادّخرته كان سينفعني جدّاً عندما أكبر. سينفعني جدّاً». لكنّه سرعان ما نسي كلّ ذلك. كان يهيِّئ نفسه للسجن. أصابه العته. ومنذ ذلك الحين وهو لا يفعل شيئاً سوى تلميع أظافره. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي كان يقوم به. ومنذ ذلك الحين كان يفعل ذلك علانيةً. طيلة شهور. وربما لشهور أخرى قادمة إلى أن يخلو له مكان في السجن. سرير لباولينه. حتى ذلك الحين ظلَّ باولينه يلمّع أظافره.

في الخارج، في الناحية الأخرى خلف السور، كانت امرأة الترام تتغنّى بالأغنية البطولية ذات الثمانمئة بيت. كانت تغنّيها من الرابعة والنصف صباحاً حتى الثانية عشرة والنصف ليلاً. كانت تغنّي بشعرها المجعد ونهديها. كانت أغنيتها السخيفة تتغلغل في زنزانتنا، الأغنية اليومية، الأغنية الأبدية، السخيفة: «ليرتر شتراسه»، «ليرتر شتراسه». كان بإمكان واحدنا أن يتخيّلها. المرأة المغنية. ربما كانت تعضّ في أثناء التقبيل من شدة السُّعار. ربما كانت تتأوّه بحيوانية. (ربما كانت تقول متلعثمة عندما يمدّ أحدهم يده تحت الجيبة: ليرتر شتراسه؟) ربما اتسعت عيناها واغرورقتا إذا أغواها أحد في المساء. ربما كان يفوح منها في الرابعة صباحاً رائحة العشب النديّ: بارداً، أخضر، ومجنوناً، و...، نعم، و... آخ! هذه المرأة كانت تغني ثمانمئة مرة في اليوم: «ليرتر شتراسه». «ليرتر شتراسه». لم يأتِ أحدٌ ويخنقها. لم يفكِّر فينا أحد. لم يعضّها أحدٌ في رقبتها حتى تحتضر، هذه المرأة سيّئة السمعة. لا، أبداً، راحت تغني، امرأة الترام، راحت تغني تلك الأغنية العاطفية الحزينة، الأغنية العالمية، المحلية، هذه الأغنية السخيفة التي لا تُمحى ولا تزول: «ليرتر شتراسه».

كانت هناك أيام خالية من الدوار أيضاً. أيام أعياد واحتفالات، أيام عطَلٍ ببساطة. كانت تلك الأيام بالنسبة لنا هي أيام الاثنين. كان مسموحاً لنا يوم الاثنين بحلاقة الذقن. كانت تلك الأيام هي الأيام الرجالية، أيام تمنح الثقة والانتعاش. مرّة في الأسبوع كانوا يسمحون لنا بذلك. في أيام الاثنين. كان الصابون سيّئاً، والماء بارداً، وشفرة الحلاقة ثَلِمةً على نحو بائس. (بإمكان المرء أن يركب على هذا النصل حتى يصل إلى برسلاو، كان ليبيش يقول لاعناً. وكان دائماً يركب إلى برسلاو. كما كان يفعل مع امرأة الترام). إلى هذا الحد كانت شفرة الحلاقة ثلِمة. غير أن أيام الاثنين هذه كانت أيام أحد؛ إذ كان يُسمح لنا يوم الاثنين بحلاقة الذقن

تحت الحراسة. عندئذٍ كان باب زنزانتنا ينفتح، وفي الخارج كان تروتنر يجلس وعلى حجره ساعة. كانت ساعة ضخمة، عالية الصوت، مكشوطة الحواف. كان تروتنر برتبة شاويش، ذا معدة مريضة، 54، أباً، شارك في الحرب العالمية. وعابس الوجه. دوره في هذه الحياة كان عابساً. بالتأكيد لم يكن عابساً مع أطفاله. ولكن معنا. معنا كان عابساً جداً. كان هذا شيئاً غريباً. عندما كنا نحلق الذقن يوم الاثنين، كان تروتنر يجلس أمام زنزانتنا وبيده الساعة، ويدقّ بكعبيه (كانا مزوّدين بالمسامير، بالطبع) مارشاً بروسياً. وكنا لذلك نجرح أنفسنا. لأنه كان يدقّ بكعبيه نافد الصبر. ولأنه كان يضنّ علينا بالحلاقة. فحلاقة الذقن تجعل الإنسان سعيداً. ولهذا كان يغضب عندما نحلق ذقوننا. وكان يحدّق طيلة الوقت في ساعته المقزّزة العالية الصوت. وإلى ذلك يدقّ بكعبيه نافد الصبر المارش العسكري. وفوق ذلك كان جيب مسدّسه مفتوحاً. كان أباً، وجيب مسدّسه مفتوحاً. كان ذلك أمراً غريباً جداً.

لم يكن لدينا بالطبع مرآة؛ فباستطاعة المرء أن يقطع عروق يده بواسطتها. كانوا يضنّون علينا بذلك. لم نكن نستحقّ موتاً بسيطاً هادئاً كهذا. ولهذا سمّروا قطعةً من الصاج اللامع على خزانتنا الصغيرة. إذا كان المرء مضطرّاً فبإمكانه أن يرى صورته عليها. لكنه لن يتعرّف عليها. لم يكن باستطاعة المرء أن يتعرّف على نفسه. قطعة الصاج اللامع كانت مسمّرة على خزانتنا الصغيرة. كان لدينا خزانة صغيرة. وفي داخلها أوعية الطعام الأربعة التي نأكل منها. المصنوعة من الألومينيوم. منبعجة. مخربشة. تذكّر بكلاب الحوش. يا للوضاعة! مكتوب على أحدها: في الغد يتبقّى 17 شهراً فحسب. على الآخر جدول بالأيام، عليه صلبانٌ صغيرة كثيرة. وعليه اسم إليزابيت. سبع أو ثماني مرات. على وعائي لم

يكن مكتوباً سوى: دائماً شوربة. هذا هو كلّ شيء. كان محقّاً. وعلى وعاء باولينه خربشَ أحدهم ثديين متهدّلين. وعندما كان يفرغ باولينه من احتساء الشوربة كان يجد الثديين الضخمين يحدّقان فيه. مثل عيون القدر. لم يكن يحبّ شيئاً كهذا على الإطلاق. لكنه كان يعدّ البودينغ. وهذه هي العقوبة. ربما لهذا راح جسده ينحل. ربما كان النهدان يشعرانه بالتقزّز البالغ.

مساء أمس ألقى لي موتسارت بقميصه الأزرق. لم أعد أحتاجه، قال. عنده اليوم جلسة محاكمة. في الصباح جاؤوا لإحضاره. يتّهمونني بأني سرقت راديو، قال موتسارت. والآن أقف بقميصه الأزرق أمام المرآة الصفيحية محدِّقاً في صورتي. باولينه كان يتفرّج. كنت فرحاً بالقميص. إذ إن قميصي تمزّق خلال بحثي عن القمل. والآن أصبح عندي قميص آخر. الأزرق الفاتح يناسبني جداً. على الأقل هذا ما قاله باولينه. وكان هذا رأيي أنا أيضاً. يناسبني الأزرق. غير أني لم أستطع أن أزرِّر الياقة. كان موتسارت فتى صغيراً رقيقاً. رقبته كانت مثل رقبة البنات. رقبتي كانت أكثر بدانة. (التشبيه برقبة البنات كان باولينه يستخدمه دائماً). اتركها مفتوحة، قال ليبيش من عند النافذة. عندئذٍ تبدو مثل رجلٍ اشتراكيّ.

لكن الآخرين سيرون عندئذٍ شعر الصدر، قال باولينه. هذا يثير، ردّ ليبيش محدِّقاً مرّة أخرى تجاه الصوت القادم من المكبِّر.

كان موتسارت بالفعل صغيراً ورقيقاً إلى حدّ لا يُصدَّق. رقبته كانت مثل رقبة البنات. (يقول باولينه دائماً).

عندئذ جاءت شوربتنا المجرية. كانت تتكوّن من ماء ساخن وقرون شطّة. كانت تسبِّب الحرقان في المعدة. حتى يشعر الإنسان بالشبع. وهذا شيء ذو قيمة كبيرة. لكنّ المرء يتقيّأ مئة مرّة.

خلال الأكل عاد موتسارت من محاكمته. أربع ساعات. كان مرتبكاً

قليلاً. فتح تروتنر باب الزنزانة وأدخله. غير أنه لم ينزع عنه الأصفاد. اندهشنا. هه، كم أعطوك؟ سألناه نحن الثلاثة في صوتٍ واحد، واضعين ملاعقنا على المائدة في انتظار. آلام في الحلق، قال موتسارت وكان مرتبكاً قليلاً. لم نفهمه.

جراب مسدّس الشاويش كان مفتوحاً. كان يقف كالمارد عند باب الزنزانة. رغم أن طوله لا يزيد عن متر وسبعين. هيّا، اجمع حاجاتك يا موتسارت! راح موتسارت يجمع حاجاته. قطعة صابون. مشط. المنشفة المشطورة. رسالتان. لم يكن لديه المزيد. كان مرتبكاً.

احكِ لزملائك ما ارتكبته! يهمّهم هذا. ارتعب موتسارت. عندما قال تروتنر. ذلك كان يبدو وضيعاً للغاية. بالتأكيد لم يكن يبدو وضيعاً هكذا في بيته. كان موتسارت مرتبكاً.

كنت أرتدي زيّ شاويش - بدأ موتسارت بصوت خافت تماماً.

رغم أن - ساعده تروتنر.

رغم أني عريف فحسب.

وماذا أيضاً يا موتسارت؟

كنت أحمل نيشان الفروسية على الرغم من أنه مسموح لي بحمل ميدالية الشرق فقط.

واصِل يا موتسارت، أكمِل!

تجاوزت إجازتي.

بضعة أيام فقط يا موتسارت، هه، بضعة أيام فقط؟

لا، سيّدي الشاويش.

وإنما، يا موتسارت، وإنما؟

تسعة شهور، سيدي الشاويش.
وماذا يسمّون ذلك يا موتسارت؟ تجاوز الإجازة؟

لا.

ماذا إذاً؟

الفرار من الجندية، سيدي الشاويش.

بالضبط يا موتسارت، بالضبط تماماً. هه، وماذا في جعبتك أيضاً؟

أبعدت كلّ أجهزة الراديو.

سرقتها، يا موتسارت.

سرقتها، سيدي الشاويش.

كم جهازاً إذاً؟ يا موتسارت الصغير، كم جهازاً؟ احكِ! هذا شيء يهمّ زملاءك!

سبعة.

ومن أين يا موتسارت؟

بالسطو.

سبع مرّات يا موتسارت؟

لا، سيدي الشاويش. 11.

11 ماذا يا موتسارت؟ تكلّم بوضوح!

سطو، 11 مرّة.

في جملة كاملة يا موتسارت، لا تكن خجولاً هكذا! تحدَّث بجملٍ كاملة، إذاً!

سطوت إحدى عشرة مرّة.

هكذا يا موتسارت. هذا جيّد. وغير ذلك؟ ليس هناك شيء آخر، شيء آخر يا موتسارت، هذا هو كلّ شيء؟

لا، سيّدي الشاويش.

ماذا غير ذلك يا موتسارت، ماذا؟ ماذا لديك غير ذلك؟

المرأة العجوز...

ماذا يا موتسارت، ماذا حدث معها؟

لقد خبطتها.

خبطتها يا موتسارت؟

دفعتها.

آه. ثم، ثم؟ احكِ لزملائك! هذا شيء يهمّهم. من الإثارة أصبحوا خرساً. إنهم في قمّة الدهشة. هيّا، يا موتسارت الصغير، ماذا حدث للجدّة العجوز؟

ماتت. قالها موتسارت بصوتٍ خافت تماماً. بصوتٍ أكثر خفوتاً. لم يقل سوى: ما – تت. كان مرتبكاً للغاية. عندئذٍ تطلّع إلى الشاويش الذي استقام عوده. هل جمعت ملابسك؟

نعم.

وكيف ينبغي أن تقولها؟

نعم، سيدي الشاويش.

شدّ عودك إذاً!

وضع موتسارت يديه على خياطة السروال. وهكذا فعل الشاويش. عندئذٍ قال:

إني ألفت انتباهك إلى أنه ينبغي عليّ أن أستخدم السلاح في حالة

محاولتك الهرب. كان جراب مسدّسه مفتوحاً. تماماً كما في أيام الاثنين خلال حلاقة الذقن. ثم أصدر الأمر: هيّا! أراد موتسارت أن يصافحنا. غير أن الارتباك سيطر عليه ولم يفعل. في الحقيقة كان دائماً مرتبكاً قليلاً. لم يكن سوى فتى صغيرٍ رقيق. رقبته مثل رقبة فتاة. في بعض الأحيان كان يغنّي في المساء، عندما تنتشر العتمة. وعندما يطلع النور كان الارتباك يستولي عليه. كان حلاقاً. يداه كأيدي الأطفال. كان يعشق موسيقا الجاز. بملاعقنا وبالضرب على أوعية الأكل كان يعزف موسيقى الجاز ساعاتٍ طويلة. إلى أن أطلقنا عليه موتسارت.

وقف عند باب الزنزانة. واستدار، رغم أنه كان مرتبكاً للغاية. من الارتباك احمرّت رقبته الرقيقة.

قميصك - قلت.

قميصي؟ ثم ابتسم لنا عبر بخار شوربة الفلفل. لديّ آلام في الحلق، قال. وبسبّابته صنع نصف دائرة على طول رقبة زيّه. مارّاً بحنجرته. من اليسار إلى اليمين. عندئذٍ أوصد تروتنر الباب بالمفتاح.

في المساء، عندما وضعنا الدلو الذي نقضي فيه حاجتنا خارج الزنزانة، وجد الشاويش فيه طعام الغداء. لم يستطع أن يفهم ذلك.

رادي

الليلة زارني رادي. ملامحه الشقراء هي هي لم تتغيّر، ووجهه العريض الرخو يضحك. عيناه أيضاً هما هما لم تتغيّرا: بهما شيء من الخوف والقلق. الزغب الأشقر المتناثر على ذقنه كما هو أيضاً.

كلّ شيء كما هو.

قلت له: ولكنّك ميتٌ يا رادي!

فأجابني: نعم، لا تضحك. أرجوك!

- وما الذي سيضحكني؟

- أعرف جيداً أنكم كنتم دائماً تضحكون عليّ. بسبب مشيتي المضحكة. وبسبب حديثي الدائم عن البنات في طريقنا إلى المدرسة، بنات لم تكن بيني وبينهنّ أي معرفة. كنتم تضحكون دائماً على ذلك. وتضحكون لأن شيئاً من الخوف كان يعتريني دائماً. كلّ ذلك أعرفه تماماً.

سألته: هل مضى وقت طويل على وفاتك؟

- لا، على الإطلاق. لقد سقطت صريعاً في الشتاء. لم يستطيعوا دفني بشكل صحيح، فقد تجمّد كلّ شيء. كلّ شيء كالصخر.

- فهمت، قُتلت في روسيا؟ صحيح؟

- نعم، على الفور في أول شتاء. لا تضحك! ليس جميلاً أن تموت في روسيا. كلّ شيء بدا لي غريباً. الأشجار غريبة. أتعلم، حزينة. غالباً ما تكون أشجار صفصاف. أينما رقدت كنت أرى أشجار الصفصاف الحزينة. حتى الأحجار كانت تئنّ أحياناً. لا بّد أنها أحجار روسية. الغابات تصرخ في الليل. لا بدّ أنها غابات روسية. والثلوج تصرخ. لا بدّ أنها ثلوج روسية. أجل، كلّ شيء غريب. كلّ شيء غريب للغاية.

وجلس رادي على حافة الفراش ولاذ بالصمت.

قلت له: لعلّ مصدر كراهيتك لكلّ شيء أنك قضيت نحبك هناك.

فتطلّع إليّ قائلاً: أتعتقد؟ لا، كلّ شيء غريب إلى أقصى درجة. كلّ شيء. ونظر إلى ركبتيه، ثم قال: كلّ شيء غريب جدّاً. حتى الإنسان نفسه.

- الإنسان نفسه؟

- نعم، لا تضحك. أرجوك! هذا هو تحديداً ما يحدث. الإنسان يكون غريباً كلّ الغربة عن نفسه. لا تضحك. أرجوك. لهذا جئت الليلة إليك. أردت أن أتحدّث معك في ذلك.

- معي؟

- نعم، أرجوك، لا تضحك. أتحدث معك أنت. أنت تعرفني حقّ المعرفة، أليس كذلك؟

- كنت أظن ذلك دائماً.

- لا فرق. أنت تعرفني جيداً. أعني هيئتي الخارجية، وليس حقيقتي. أقصد أنك تعرف بالضبط كيف أبدو. أليس كذلك؟

- نعم، أنت أشقر. وجهك كامل الاستدارة.

- بل قل صراحةً إن وجهي رخو، فأنا أعرف ذلك أيضاً. أكمِل!

- نعم، لك وجه رخو. دائم الضحك، وعريض.

- نعم، نعم. وعيناي؟

- عيناك بهما دائماً شيء من... شيء من الحزن والغرابة.

- لا تكذب! الخوف والقلق يبلغان أشدّهما في عيني، لأني لم أكن أعرف أبداً ما إذا كنتم ستصدّقون حكاياتي عن البنات. ثم، كنت دائماً أملس الوجه؟

- لا، لم تكن كذلك. كان هناك بعض الزغب الأشقر على ذقنك. كنت تظنّ أن أحداً لن يراه، ولكننا كنا نراه دائماً.

- وتضحكون؟

- ونضحك.

جلس رادي على حافة فراشي، وراح يدلِّك ركبتَيه بكفَّيه. ثم قال هامساً: نعم، هكذا كنت. هكذا بالضبط. ثم حدّق فيّ فجأةً بعينيه الخائفتين: هل تُسدي إلي، من فضلك، معروفاً؟ ولكن من فضلك لا تضحك، من فضلك. تعال معي!

- إلى روسيا؟

- نعم، لن يستغرق الأمر وقتاً. للحظة فقط. لأنك ما زلت تعرفني جيداً. أرجوك!

وأمسك بيدي. كانت يده كالثلج، باردةً تماماً، رخوة تماماً، خفيفة تماماً. وقفنا بين صفصافتين. كانت هناك بقعة فاتحة اللون. قال رادي: تعال، فهناك أرقد.

رأيت هيكلاً عظمياً لإنسان، يشبه تماماً ما سبق أن رأيته في المدرسة، وبجانبه قطعة من المعدن لونها أخضر مشوبٌ ببنّيّ. وقال رادي: هذه خوذتي. صدئة تماماً، ومليئة بالطحالب. ثم أشار إلى الهيكل قائلاً:

- أرجوك، لا تضحك. ولكن هذا... هو أنا. أتدري معنى ذلك. أنت

تعرفني جيداً، فقل بنفسك: أيمكن أن يكون هذا أنا؟ هل تعتقد ذلك؟ ألا تجد ذلك غريباً جداً؟ ليس هذا مني في شيء. لم يعد في استطاعة أحد أن يتعرّف عليّ. ولكن هذا هو أنا. لا بدّ أن أكونه. ليس بوسعي أن أفهم ذلك. إنه غريب للغاية. كلّ ما كنته ليس له أدنى علاقة بهذا. لا، أرجوك، لا تضحك. فكلّ شيء يبدو لي غريباً جداً. يستعصي على الفهم، وبعيداً.

جلس رادي على التراب الداكن ناظراً أمامه في حزن:

- ليس لهذا أدنى علاقة بما كان. لا شيء. لا شيء مطلقاً.

ثم رفع بأنامله شيئاً من التراب الداكن وشمّه، وقال هامساً:

- غريب، غريب تماماً.

ومدَّ يده بالتراب تجاهي. كان كالثلج، كيدِه التي أمسكني بها قبل قليل، بارداً تماماً، رخواً تماماً، وخفيفاً تماماً. ثم قال:

- شمّ!

فأخذت نفساً عميقاً.

- هه؟

فقلت: تراب.

- وماذا أيضاً؟

- حمضيّ بعض الشيء. مرّ بعض الشيء. تراب مثل أيّ تراب.

- ولكنه غريب؟ غريب تماماً؟ بل وكريه أيضاً، أليس كذلك؟

أخذت نفساً عميقاً. كانت تفوح من التراب برودةٌ ورخاوة وخفّة. حمضيّ بعض الشيء. ومرّ بعض الشيء. قلت له:

- ليس في رائحته شيء. تراب مثل أيّ تراب.

- أليس كريهاً؟ أليس غريباً؟

تطلّع رادي إليّ بعيون ملؤها الخوف، ثم أضاف:

- لكنّ الكراهية تفوح منه.

وشممت.

- لا. هذه هي رائحة التراب في كلّ مكان.

- أهذا رأيك؟

- بالتأكيد.

- ولا تجده كريهاً؟

- لا، رائحته طيبة للغاية يا رادي. شُمَّه مرّةً أخرى، بعمق!

تناول رادي بعضاً منه بأنامله، وشمّه، ثم تساءل:

- أهذه هي رائحة التراب في كلّ مكان؟

- نعم، في كلّ مكان.

أخذ رادي نفساً عميقاً. ألصق أنفه بيده التي تحمل التراب وأخذ نفساً. ثم حدّق فيّ قائلاً:

- عندك حقّ. لعلّ رائحته طيِّبة للغاية، ولكنّها غريبة. عندما أفكِّر في أنّ هذا هو أنا. إن رائحته غريبة للغاية.

وجلس رادي وشمّ. ونسيني. وشمّ، وشمّ، وشمّ. أخذ يقلِّل شيئاً فشيئاً من نطق كلمة «غريب». راح صوته يزداد خفوتاً. وشمّ، وشمّ، وشمّ.

عندئذٍ تسلّلتُ عائداً إلى منزلي على أطراف الأصابع. كانت الساعة الخامسة والنصف فجراً. في الحدائق الصغيرة رأيت التربة عبر الثلوج. خطوت بقدميّ العاريتين على التراب الداكن في الثلوج. كان بارداً، رخواً، وخفيفاً، ومنه تفوح رائحة. نهضتُ وأخذتُ نفساً عميقاً. أجل، له رائحة. وهمست قائلاً: له رائحة زكيّة يا رادي. له رائحة زكيّة حقاً. رائحته كأيّ تراب. فاهدأ واسترح!

الكاتب

على الكاتب أن يسمّي البيت الذي يشتركون جميعاً في بنائه. عليه أن يطلق على حجرة المرضى: «الحجرة الحزينة»، وعلى حجرة السطح: «حجرة الريح»، وعلى القبو: «المكان المظلم».

يعذِّبه اليأس إن لم يعطوه قلماً. لا بدّ أن يحاول عندئذٍ أن ينحت على الجدران بيد الملعقة. كما في السجن، ذلك الفراغ القميء. ليس كاتباً أصيلاً مَن لا يفعل ذلك في وقت الضيق. كان يجب أن يجد مكانه بين كنّاسي الشوارع.

إذا قرأ الناس رسائله في بيوتٍ أخرى، فلا بدّ أن يدرك الناس: آه، هكذا إذاً يعيش الآخرون في ذلك البيت. سيّان بأيّ خطٍّ يكتب. المهمّ أن يكتب بخطٍّ مقروء. يمكنه أن يسكن في حجرة السطح، فهناك يطلّ الإنسان على أروع المناظر. «رائع» يعني جميل ومفزع. هناك في أعلى البيت يشعر المرء بالوحدة. هناك تبلغ الحرارة أشدّها، وكذلك البرودة.

قد يُصاب الحجّار فيلهلم شرودر بالدوار إذا أتى لزيارة الكاتب في حجرة السطح. على الكاتب ألا يهتمّ بذلك، بل على السيد شرودر أن يعتاد الارتفاعات. سوف يفيده ذلك.

يستطيع الكاتب أن ينظر إلى النجوم ليلاً. ولكن، الويل له إن لم يستشعر الخطر المهدّد للبيت! عليه عند قدوم الخطر أن ينفخ في الأبواق حتى تنفجر رئتاه!

ردّ واحد

أنت، أيّها العامل على ماكينة أو في ورشة، إذا أمروك غداً أن تتوقف عن تصنيع مواسير المياه وأواني الطهي، وأن تصنع بدلاً منها خوذاتٍ مصفّحة أو مدافع رشّاشة، فليس هناك إلا ردٌّ واحد:

قل: لا!

أنتِ، أيّتها البائعة في متجر، وأنت أيّتها العاملة في مكتب، إذا أمروكِ غداً أن تقومي بحشو قنابل المدافع وتركيب تلسكوبات التصويب في أسلحة القنص، فليس إلا ردٌّ واحد:

قولي: لا!

أنت، يا صاحب المصنع، إذا أمروك غداً أن تبيع البارود بدلاً من الكاكاو ومساحيق الزينة، فليس إلا ردّ واحد:

قل: لا!

أنت، أيّها الباحث في المختبر، إذا أمروك غداً أن تخترع موتاً جديداً للحياة العتيقة، فليس إلا ردّ واحد:

قل: لا!

أنت، أيّها الشاعر في صومعتك، إذا أمروك غداً ألا تغنّي للحب، بل للكراهية، فليس إلا ردّ واحد:

قل: لا!

أنت، أيّها الطبيب الواقف عند فراش المرضى، إذا أمروك غداً أن تقرِّر أن الرجال لائقون لخوض الحرب، فليس إلا ردٌّ واحد:

قل: لا!

أنت، أيّها القسّ على المنبر، إذا أمروك غداً أن تبارك القتل وتقدِّس الحرب، فليس إلا ردّ واحد:

قل: لا!

أنت، يا قبطان الباخرة، إذا أمروك غداً أن تتوقف عن شحن القمح وأن تشحن بدلاً منه المدافع والدبابات، فليس إلا ردٌّ واحد:

قل لا!

أنت، أيّها الطيار في القاعدة الجوية، إذا أمروك غداً أن تلقي القنابل والفسفور على المدن، فليس إلا ردٌّ واحد:

قل: لا!

أنت، أيّها الخيّاط في دكانك، إذا أمروك غداً أن تقوم بتفصيل الزيّ العسكري، فليس إلا ردٌّ واحد:

قل: لا!

أنت، أيها القاضي المرتدي روب القضاة، إذا أمروك غداً أن تصبح عضواً في المحكمة الحربية، فليس إلا ردٌّ واحد:

قل: لا!

أنت، أيّها العامل في محطة القطار، إذا أمروك غداً أن تعطي إشارة التحرّك لقطار الذخيرة وقطار الجنود، فليس إلا ردٌّ واحد:

قل: لا!

أنت، يا ابن القرية، ويا ابن المدينة، إذا أتوا إليك غداً ليسلّموك أمر التجنيد، فليس إلا ردٌّ واحد:

قل: لا!

أنتِ، أيّتها الأمّ في النورماندي، أيّتها الأمّ في أوكرانيا، أنت، أيّتها الأم في فريسكو وفي لندن، وأنت على نهر المسيسبي وعلى الهوانغهو، أنت، أيّتها الأم في نيبال وهامبورغ والقاهرة وأوسلو - أيّتها الأمهات في شتى بقاع الأرض، يا أمهات العالم، إذا تلقّيتنّ الأوامر غداً بأن تلدن أطفالاً، ممرّضات في المستشفيات العسكرية، وجنوداً آخرين لمعارك أخرى، فيا أمّهات العالم ليس إلا ردٌّ واحد:

قلن: لا! يا أمّهات! قلن: لا!

فإذا لم تقُلن لا، إذا لم تقلن «لا» أيتها الأمهات - فعندئذٍ:

عندئذٍ:

في الموانئ الطافحة بالضوضاء والمشبَعة بالأبخرة، ستئنّ السفن العظيمة ثم تصمت، وكالجيفة الهائلة الضخمة ستتأرجح بخمولٍ في مواجهة أرصفة الميناء المنعزلة الموحشة. حشيش الماء وعشب البحر والقواقع التي كانت في ما مضى كالجسد اليافع النابض بالحياة، كلّ هذا سيتفتّت ويتعفّن ويذوي، وستتصاعد منه عفونة القبور ونتانة السمك.

عربات الترام ستنبعج انبعاجاً سخيفاً، كأقفاصٍ ذات عيونٍ زجاجية

مطفأة خاليةِ من أيّ معنى وهي ملقاة وقد تقشَّر دهانها بجانب الهياكل الحديدية المبعثرة، هياكل الأسلاك والقضبان، خلف الأنقاض المثقوبة والمنهارة في الشوارع المهجورة والمهلهلة كفوهة بركان.

صمتٌ ثقيل، في وطأة الطمي الرماديّ المدعوس، يتكاثف ويتنامى بفظاعةٍ وشهوانيّة لا تتوقف، ثم يتوغّل في المدارس والجامعات والمسارح والملاعب الرياضية وملاعب الأطفال.

العنب الشهيّ الرائع الناضج سيتعفّن على المنحدرات الآيلة للسقوط. الأرزّ سيصيبه الجفاف في الأرض العطشى. البطاطس ستتجمّد في الأرض البور. الأبقار سترفع قوائمها البالغة الصلابة تجاه السماء كإناء الحليب المقلوب.

وفي المعاهد، ستصبح الاختراعات العبقرية للأطباء العظام عديمة الجدوى، عفِنةً، بالية.

أمّا في المطابخ والحجرات والأقبية والثلاجات والمخازن، فستفسُد آخر أكياس الدقيق وآخر الأوعية الزجاجية التي تحتوي على الفراولة والقرع وعصير الكريز. الخبز تحت الموائد المقلوبة والأطباق المهشمة سيتعفّن، والزبد السائل سيتلف وتتصاعد منه رائحة نتنة، ستتساقط الحبوب في الحقول وتهوي بجانب المحاريث الصدئة كالجيش الصريع؛ الأطعمة، والمداخن التي يتصاعد منها الدخان الكثيف، ومداخن المصانع المحطّمة التي يعلوها عشبٌ لا نهاية له؛ كلُّ هذا يتفتّت، ويتفتّت، ويتفتّت.

عندئذٍ، سيهيم آخر إنسانٍ على وجهه، بأحشائه المهترئة ورئته التالفة، يسير وحيداً تحت قيظ الشمس النافث سمّاً، وتحت النجوم المتأرجحة، لا ينطق بكلمة، وحيداً بين المدافن الجماعية التي لا تُحصى والأصنام الباردة في المدن الخرسانية العملاقة المقفرة؛ يهيم الإنسان الأخير على وجهه

نحيلاً، مجنوناً، لاعناً شاكياً، وشكواه المخيفة: «لماذا؟»، تضيع في جنبات البرّيّة من دون أن يسمعها أحد، وتمرق صرخته بين الأنقاض، وتتسرّب بين أطلال الكنائس صافعةً المخابئ الحصينة، ثم تسقط في الحفر التي تفيض دماءً، لا يسمعها أحد، ولا يجيب عليها أحد، إنها آخر صرخةٍ يصرخها الإنسان الحيوان.

كلّ هذا سيحدث، غداً، ربما يحدث غداً، بل ربّما يحدث هذه الليلة، ربما هذه الليلة، إذا - إذا -

إذا لم تقولوا: لا!

فولفغانغ بورشرت (1921 - 1947):

ولد بورشرت في العشرين من أيّار (مايو) 1921 بمدينة هامبورغ بألمانيا، ثم أُجبر على الاشتراك في الحرب العالمية الثانية منذ عام 1941 حتى انتهائها عام 1945، وفي 20 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 تُوفِّي في أحد مستشفيات مدينة بازل بسويسرا: هذه هي المحطّات الرئيسية في حياةٍ قصيرة لشاعرٍ كبير؛ شاعرٍ رفض الحرب، وكره القتل، وظلَّ يغنّي للحياة حتى آخر أنفاسه.

خلال عامين، ما بين رجوعه من الحرب ووفاته، أبدع بورشرت ديوان شعر، ومسرحيةً بعنوان «في الخارج، أمام الباب»، ومجموعة من القصص. غير أن هذه الأعمال القليلة تركت أثراً كبيراً في جيله، وخلّدت اسمه في الأدب الألماني الحديث.

سمير جريس:

درس الألمانية وآدابها في القاهرة وفي ماينتس بألمانيا، وترجم عن الألمانية عدداً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك، الحائزة على جائزة نوبل للآداب عام 2004، و«الوعد» لفريدريش دورنمات، و«حياة» لدافيد فاغنر.

صدرت له لدى دارَي «سرد» و«ممدوح عدوان» ترجمة كتاب توماس

برنهارد «صداقة مع ابن شقيق فيتغنشتاين»، ومسرحية «مدرسة المستبدّين» للكاتب إريش كستنر، ورواية «دون جوان» للكاتب بيتر هاندكه.

نال جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي (2018)، وجائزة معهد «غوته» للترجمة الأدبية إلى العربية (2014)، كما حصل على الجائزة الأولى في ترجمة القصة، من المجلس الأعلى للثقافة في مصر (1996).

«نحنُ جيلٌ بلا وداع»، يقول الأديب الألماني «فولفغانغ بورشرت» ملخِّصاً مأساة جيله الذي سِيق إلى الحرب العالمية الثانية من دون أن يودّعه أحد، ولعلّ «بورشرت» هو أكثر الأصوات قدرةً على التعبير عن هذا الجيل، وعن تلك الحرب، التي خلّفت دماراً مادياً وروحياً هائلاً في ألمانيا، مثلما خلّفت خراباً أدبياً أيضاً.

ترك «بورشرت» مجموعة من القصص القصيرة، يصفها زميله هاينريش بُل، الحائز على جائزة نوبل للآداب، بأنّها «تُحَفٌ فنّيّة مكتملة». أما الأديب المصريّ إبراهيم أصلان فيرى في قصصه «تعبيراً رفيعاً عن ضراوة الحروب جميعاً، دون كلمةٍ مباشرة واحدة».

في هذا الكتاب نقدّم للقارئ مختارات من هذه القصص، وما جذبنا إليها هو التناول الإنساني للموضوعات الكبرى، مثل الحرب، والموت، والحبّ، والشعور بالضّياع، والتعبير الفنّي عنها.



ISBN 978-9933-540-93-7
9 789933 540937